ثقافات الشعوب

@ketab_n
15.11.2014

@ketab_n

# عصفورة الثلج ونمر الماء

## الحكايات الشعبية للهنود الحمر

جمع: مارغريت كومبتون
ترجمة: سامر أبو هواش

# عصفورة الثلج ونمر الماء

## الحكايات الشعبية للهنود الحمر

جمع:
مارغريت كومبتون

ترجمة:
سامر أبو هواش

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# عصفورة الثلج ونمر الماء

## الحكايات الشعبية للهنود الحمر

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

عصفورة الثلج ونمر الماء: حكايات الهنود الحمر

© حقوق الطبع محفوظة

هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

E98. F6. H312 2009
Compton, Margaret, 1852-1903.
[Snow Bird and Water Tiger]

عصفورة الثلج ونمر الماء: حكايات الهنود الحمر/ جمع مارغريت كومبتون؛ ترجمة سامر أبو هواش.
ط.1.– أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
176ص؛ 19x12.5 سم. (سلسلة ثقافات الشعوب).
تدمك: 2- 354-01-9948-978
ترجمة كتاب: Snow Bird and Water Tiger
1 - الحكايات الأمريكية. 2 - القصص الشعبية الأمريكية أ- أبوهواش، سامر- 1972. ب- العنوان.

مراجعة وتحرير: سامر أبوهواش
إخراج وتصميم: أحمد عبد الله التنان

info@kalima.ae
www.kalima.ae
كلمة KALIMA

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ،
فاكس: 462 6314 2 971+

www.adach.ae
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ،
فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

# المحتويات


| الموضوع | رقم الصفحة |
|---|---|
| تقديم | 9 |
| الراوي لاغو | 14 |
| عصفورة الثلج ونمر الماء | 17 |
| القيّوط أو ذئب البراري | 27 |
| كيف قاتل البوفالو المجنون طائر الرعد | 37 |
| البجعة الحمراء | 44 |
| الصخور المنحنية | 60 |
| الصقر الأبيض الكسول | 66 |
| الريشة السحرية | 75 |
| فتاة النجمة | 90 |
| الأرنب الوحشي المحارب | 94 |
| الرأس العظيم | 105 |
| مغامرات التمثال الحيّ | 113 |
| طائر القمريّة والطّيهوج والساحرة | 121 |
| جزيرة الهياكل العظمية | 127 |
| القميص الحجريّ و«الأول – الثاني» | 138 |
| الساحر العظيم | 148 |
| زيارة السحابة البيضاء إلى الأميرة الشمس | 164 |


Twitter: @ketab_n

## هذه السلسلة

تأتي هذه السلسلة التي تجمع تراث الشعوب من الحكايات والأساطير والخرافات الشعبية، منسجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسها مبادرة «كلمة» منذ البداية، كمشروع رائد للترجمة في العالم العربي. تلك القيم والأهداف التي تسعى أبوظبي إلى تجسيدها، لتشيع ثقافة التسامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعراق والجنسيات والثقافات، وجمعها تحت سقف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

وليست حكايات الشعوب هذه، التي تقدّم للمرة الأولى لقرّاء العربية بمثل هذه الشمولية والكثافة والاتساع، إلا ترسيخاً لهذا المشترك الإنساني الجامع. وكأن ما اصطلحت البشرية على تسميته «عولمة» منذ عقدين من الزمان أو نيّف، كان متحقّقاً بالفعل منذ مئات بل آلاف السنين، عبر حكايات نجدها تتنقّل بحرية من أرض إلى أرض، ومن لسان إلى آخر، إذ تطرأ عليها تعديلات هنا أو هناك، لتناسب ثقافة هذا الشعب أو ذائقة تلك الأمة، أو ظروف تلك الجماعة. وفي بعض الأحيان نجد الحكاية نفسها - مع تغيير في أسماء الناس والأمكنة - تروى في أقاصي الشرق، على نحو ما تروى في أقاصي الغرب، أو

Twitter: @ketab_n

شمال الأرض أو جنوبها. فإذا كانت الحكايات تتمتع بميزة أساسية فهي قدرتها على اختراق الحدود الجغرافية والعرقية والنفسية والسياسية والدينية واللغوية، لتولد في كل مرة، وعند كل قوم من الأقوام، بصورة خاصة وفريدة، تشير إلى خصوصية الذات.

وهكذا، تبقى الحكايات سرّ هذه الأرض الواحدة، نبتتها أو لنقل زهرتها الفريدة، التي نبتت من تربتها الخصبة الواحدة، ونمت تحت سمائها الشاسعة الواحدة، لتجوب آفاق الدنيا، مبدّلة ربما أثوابها وألوانها، ولكن محتفظة دوماً بجوهرها الإنساني الفسيح والعميق.

وإننا إذ نقدّم هذه الحكايات، زهرات الأرض الفريدة هذه، في باقة واحدة ثرية الأجناس والألوان، فإيماناً منا بأننا على اختلاف ثقافاتنا وحضاراتنا، أبناء هذه الأرض الواحدة، وبأن ما ترويه جدّة ما لأحفادها في أصقاع القطب الجنوبي، من حكايات تؤكد قيم الخير والحب والعدالة والسلام، ترويه - وإن بلغة أخرى - جدة أخرى في أصقاع أخرى من الأرض، وهذا ما يجعل الحكايات الشعبية ميراثاً أصلياً للبشرية جمعاء، بقدر ما هي ملك أصلي لكلّ شعب من الشعوب وثقافة من الثقافات.

**د. علي بن تميم**

**مدير مشروع «كلمة» للترجمة**

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# تقديم

لا يسعنا ونحن نقرأ الحكايات الشعبية لهنود أمريكا الحمر، أو سكانها الأصليين، إلا أن نشعر بتلك الطاقة الشعرية الكبيرة الكامنة فيها. فعلى الرغم من شدّة بساطة هذه الحكايات، الموضوعة أصلاً لكي تروى للأطفال قبل النوم، شأن جميع حكايات شعوب العالم المختلفة، فإنها تحفل بالرموز والإشارات، الساعية إلى تفسير العالم بكلّ مظاهره المادية والطبيعية ونوازع البشر المتصارعة فيه، كما تفسير عوالم الغيب وألغازه وخوارقه، وإقامة صلة ما معه، نجدها تتمثّل أولاً وأخيراً في السرد نفسه. ذلك أن تحويل العالم وما بعده إلى حكاية يجعله في نهاية المطاف مكاناً أليفاً للعيش والفهم، تماماً كترويض الحيوانات الضارية، أو مواجهة تقلّبات الطبيعة الشرسة وتحوّلاتها.

لكن مع كل هذا، وعلى الرغم من الجانب الوعظي والتعليمي الكامن في بعض هذه الحكايات، فإن ما يبرز أولاً وأخيراً هو لغتها السحرية أو الشعرية والإطار التخييلي الذي ترسمه هذه

Twitter: @ketab_n

اللغة. فالراوي هو شيخ هندي هزيل يُدعى لاغو، لا يعبأ كثيراً بالمنطق، بل قد يناقضه في كثير من الأحيان، لصالح المفاجأة السحرية واللحظة المدهشة.

وقوة هذا الراوي، كما جاء في تعريف تي دبليو ليزرد له (الذي أصدرنا ضمن هذه السلسلة حكايات الهنود الحمر التي قام بجمعها)، تنبع من حكمته ومعرفته، وتجواله في العالم ورؤيته الكثير من الخوارق والأمور العجيبة، وكونه يحفظ الكثير من قصص أسلافه، إذ كان والده راوياً وكذلك جده..إلخ. أما بالنسبة إلى كومبتون، جامعة حكايات هذا الكتاب، فإن لاغو يبرز عندها كشخصية أسطورية مختلقة، ويكاد يكون واحداً من شخصيات الحكايات نفسها، فهو يتمتع بقدرات خارقة، لا تتوافر لغيره من الرجال، ومع ذلك تبقى قصصه مختلقة، فلا يصدّقها كثيرون، لكنهم يحبّون سماعها. في الحالين فإن أهمية الراوي هي في جمعه بين متعة السرد وكونه يقدّم، كرجل حكيم، من خلال حكاياته هذه، أجوبة عن الكثير من الأسئلة الغامضة حول نشأة عناصر الطبيعة والخلق وطباع الحيوانات وعلاقة الهندي الأحمر بهذا كله.

Twitter: @ketab_n

لا تقيم هذه الحكايات حدوداً بين الواقع والخيال ولا بين المرئي واللامرئي. بل تكاد تكون إحدى وظائفها خرق هذه الحدود. ما يبدو خارقاً كالرعد والعواصف، وكحركة الكواكب والنجوم، وانقلاب الليل والنهار، والولادة والموت – وعلى الرغم من أن الهدف الأساسي هو السعي إلى تفسيره وأنسنته أحياناً– يحضر في هذه الحكايات بوصفه شأناً من شؤون الحياة اليومية، أمراً يلمس لمس اليد (حتى الشمس يمكن لمسها باليد، كما يمكن إحداث ثقب في سقف السماء للإتيان بالصيف إلى الأرض...)، فتذهب إحدى الشخصيات من الحيوانات للانتقام من الشمس لأنها هبطت كثيراً وأحرقت جلده، في حين نجد في حكاية أخرى أن إحدى النجمات قررت النزول إلى الأرض والعيش بين الناس، فاجتمع حكماء القرية لكي يقرروا ماذا يمكن أن يفعلوا بهذا الأمر تماماً كما يمكن أن يجتمعوا للتشاور بشأن أيّ مسألة من مسائل القبيلة.

هذا الاختلاط بين البشر والكائنات الأخرى من حيوانات حقيقية وجن وكائنات متخيلة وأرواح مقدّسة ونباتات وأشجار وحتى بحار وبحيرات وأنهر، يقف وراء ما أسميته بالطاقة الشعرية في حكايات الهنود الحمر. لكن أبعد من ذلك

Twitter: @ketab_n

فإن هذه الحكايات تكشف أو تشير إلى جزء كبير من ثقافة السكان الأصليين وأنماط عيشهم وتفكيرهم، وهم هنا ينتمون إلى قبيلة «أوجيبوي» التي عاشت في شمال الولايات المتحدة الأمريكية. فنتعرّف على نظرة هذه الأقوام أو «الشعوب» إلى قيم مهمة كالشر والخير والحب والزواج والموت والصداقة والحرب والبطولة والخيانة والجشع..إلخ، وإلى بعض القوانين والأعراف والتقاليد التي تحكم التعامل مع الكثير من هذه الأمور. فترسم لنا الحكايات صورة صادقة إلى حدّ بعيد عن بشر حقيقيين، لا «بدائيين» ولا «بربريين» - مثلما شاع لزمن طويل- يحتضنون قيماً عزيزة راسخة تشكّل هادياً لهم في فهم الحياة والتعامل معها.

تجدر الإشارة إلى أن كلا الجامعين (أي كومبتون ولينرد) اعتمد في وضع الحكايات على ما نشره الأنثروبولوجي والرحالة الأمريكي هنري سكولكرافت (1793-1864)، وهو من أوائل من بحثوا في ثقافة السكان الأصليين وميراثهم الشعبي وسعوا إلى تدوينهما. وقد أعانت سكولكرافت في ذلك زوجته جاين جونستون التي تنتمي من جهة أحد والديها إلى قبيلة «أوجيبوي» وتعتبر أول أديبة أمريكية تنتمي إلى السكان

Twitter: @ketab_n

الأصليين، وقد علمت زوجها لغة قبيلتها وساعدته على جمع المادة التي قام بتدوينها سواء خلال عمله كرحالة وأنثروبولوجي أو كوكيل للحكومة الأمريكية في شؤون الهنود.

نشير أيضاً إلى بعض الفروقات بين الحكايات التي وضعها لينرد وتلك التي وضعتها كومبتون. فعلى سبيل المثال يدخل لينرد الراوي لاغو في صلب الحكايات، كما يسعى إلى وضع الأسماء مثلما تلفظ بلغة الهنود الحمر، ثم وضع ترجمتها. أما كومبتون فتكتفي بالتعريف بالراوي لاغو في بداية الحكايات من دون أن تأتي على ذكره بعد ذلك، كما أنها لا تضع أسماء الشخصيات مثلما ترد في الأصل بل تكتفي بترجمتها.

**سامر أبو هواش**

Twitter: @ketab_n

# الرواي لاغو

لاغو، راوي الهنود الحمر، شيخ ضئيل وجهه أسود كقشرة جوز الهند، وجسده أشبه بعكاز معقوف، أما عيناه فأكبر من عيون جميع الرجال، حتى إنهما حين تنظران إلى طائر ما تريان عليه ضعف الريش الذي يراه أيّ رجل آخر، وتبدو جميع الألوان الدقيقة في هذا الريش واضحة لناظريه. كما أن أذنيه أكبر من آذان جميع الرجال، فما يبدو للآخرين صوتاً ضعيفاً باهتاً أشبه عنده بقصف الرعود. أما رجلاه فرشيقتان سريعتان، وذراعاه صلبان قويان، مما يمكّنه من الركض أسرع وأبعد، ويمكنه رفع وحمل أضعاف ما يستطيع غيره من الرجال.

لا أحد يصدّق حكاياته لكن الجميع متشوّق دائماً لسماعها. فهو يخبر عن أشياء لم يرَ مثلها سواه؛ لكنها حكايات تطرب السمع، ولاغو يزعم أنها صحيحة. حين تتجمّد الأنهار والبحيرات فلا يعود الهندي قادراً على صيد الأسماك، ويتكوّم الثلج أقداماً فوق الأرض فلا يستطيع صيد الطرائد، تجده عاد

Twitter: @ketab_n

إلى كوخه، ولاذ تحت غطاء سميك من جلد الدب أو أقعى أمام الموقد، منتظراً زيارة لاغو. وحين تهدر العواصف حول الكوخ وتقصف الباب برقائق الثلج القاسية الجافة كالرمل، فمن المرجّح عندئذ أن يأتي لاغو زائراً.

يختفي لاغو بضعة أقمار ويعود بحكايات جديدة رائعة. لقد رأى دببة لها عيون تقدح شرراً ومخالب من الفولاذ، ورأى بعوضاً أجنحته كبيرة بما فيه الكفاية لصنع أشرعة للقوارب بها، ورأى ثعابين لها أعراف تتمايل كأعراف الجياد.

وذات مرة عثر على زنبقة ماء وريقتها واسعة إلى حد أنه صنع منها معطفاً لزوجته. وفي مرة أخرى رأى أجمة كبيرة جداً إلى حدّ أنه احتاج إلى نصف يوم للدوران حولها.

وبينما هو جالس أمام باب كوخه ذات مساء صيفيّ رمى سهماً من دون أن يصوّب تصويباً مباشراً. فقتل السهم بجعة وعشرين بطة كانت تسبح في النهر، ثم مرّ السهم وأصاب طائري «سامك» على الضفة، ثم ارتدّ ولامس المياه، فقتل عدداً هائلاً من الأسماك.

Twitter: @ketab_n

يتذكّر لاغو حين كانت السنديانة الأقدم ما زالت فتيّة. ويقول إنه سيعيش عمراً مديداً بعد أن يختفي الرجل الأبيض من البلاد.

هذه حكاياته وقد كتبت لذوي الوجوه الصغيرة الشاحبة[1]. وهي تحكي عن الجنيات والعمالقة والأقزام والساحرات والسحرة في أرضنا أمريكا.

Twitter: @ketab_n

(1) البيض (م).

# عصفورة الثلج ونمر الماء

كانت «عصفورة الثلج» متزوجة من «الدبّ البنيّ» الذي كان يهيم بها عشقاً، وكان كوخ «الدبّ البنيّ»، ذلك الصيّاد المقدام، يقع على ضفاف البحيرة الكبرى، «غوتشي غومي». وكان يؤمّن القوت لكوخه؛ وكان خفّا زوجته الأجمل في القبيلة، إذا ما استثنينا أخفاف بنات زعيم القبيلة. وحتى هذه الأخفاف كانت تدين بالكثير من جمالها للريش الجميل الذي تهديه «عصفورة الثلج» لرفيقاتها. وإذا ما سألتها من أين حصلتِ عليها تجيبك: «جاء بها زوجي من الصيد».

إلى جانب «الدب البنيّ» وزوجته كان يعيش في الكوخ، «بابوسهم»[1] الصغير الذي أسمياه «نمام»، لأنه كان يردّد دائماً «غوو غوو»، لكنهما كانا يأملان بأنه سيحصل على اسم أرفع شأناً ذات يوم، حين يضطر إلى منازلة عدوّ ما، أو قتل بعض الوحوش المفترسة التي ترهب القبيلة، وعندئذ يتخذ اسمها لنفسه.

(1) Papoose: الطفل الهندي الأحمر، وقد باتت تعتبر هذه الكلمة في الزمن المعاصر عنصرية(م).

Twitter: @ketab_n

كانوا يشكّلون عائلة سعيدة جداً، ولم يشكّل ذلك الصبي اليتيم الذي تبنياه قبل أن يولد «يمام» عبئاً يُذكر على الوالدين؛ فقد كان مصدر عون كبير لهما. لكن كان هناك إنسان آخر يسكن معهما، وهو أم «الدبّ البنيّ»، وهي عجوز شريرة، رفض جميع أبنائها الآخرين إسكانها معهم. وكان «الدب البني» ابنها الأصغر والمفضّل عندها. فكانت تعامله بلطف وحنوّ دون سواه؛ وكان بدوره يحبّها ويعتني بها خير عناية، سواء بعدما اتخذ «عصفورة الثلج» زوجة له، أم قبل ذلك. لكن العجوز كانت امرأة غيورة، وكلما أتى «الدبّ البنيّ» لزوجته بالأطعمة الشهية مثل شفة الموظ أو كِلية الدب، ازدادت العجوز كرهاً للزوجة المسكينة، وراحت تدمدم متذمرة في سرها، حيث تجلس في الركن أمام الموقد.

راحت تفكّر، يوماً بعد يوم، كيف تتخلص من هذه «الدخيلة» مثلما أسمت زوجة ابنها، متناسية أنها هي نفسها قد تزوجت الابن الوحيد لزعيم شجاع وأصبحت سيدة كوخه، وكان يعاملها بالحسنى، شأن معاملة ابنها لـ «عصفورة الثلج».

ذات يوم حين فرغت «عصفورة الثلج» من أعمالها المنزلية طلبت منها العجوز مرافقتها لكي تريها أرجوحة عثرت عليها

Twitter: @ketab_n

قرب البحيرة الكبرى. وهي كناية عن عريشة ملتوية تمتدّ فوق صخرة عالية، لكنها تتمتّع بالقوة والمتانة بسبب عمرها المديد، وكانت موثقة بإحكام إلى جذور شجرتين سامقتين. وصلت العجوز أولاً وتمسكّت بقوة بالعريشة وتأرجحت أبعد وأبعد حتى صارت فوق المياه. ثم قالت لزوجة ابنها: «يا للروعة! عليك أن تجرّبي ذلك».

فجلست «عصفورة الثلج» على الأرجوحة. وبينما تستمتع بالنسيم العليل الآتي من البحيرة تسلّلت العجوز إلى خلف الأشجار وانتظرت حتى أصبحت الأرجوحة في أقصى زخمها، وقصت العريشة، مسقطة زوجة ابنها في المياه، ثم هرعت من المكان، من دون أن تتوقف لترى ما حلّ بها.

عادت إلى البيت وارتدت ثياب زوجة ابنها وجلست في مكانها أمام النار مدارية وجهها قدر ما تستطيع بحيث لا يرى أحد تجاعيدها.

حين جاء «الدبّ البنيّ» قدّم لها الطعام الشهيّ، مفترضاً أنها زوجته، فتناولته منه بجشع، غير آبهة بأمر الطفل الذي أخذ يبكي كأن قلبه سينفجر.

Twitter: @ketab_n

سأل الأب: «لماذا يبكي يمام الصغير؟».

فأجابت العجوز: «لا أعرف، ربما كان جائعاً».

وعندئذ حملت الطفل وراحت تهزّه مدعية أنها ترعاه، لكنّ بكاءه ازداد قوة. فقامت بتغطية أذنيه وحشت شيئاً في فمه لكي تبقيه صامتاً.

ظنّ «الدب البنيّ» أن زوجته حانقة لسبب ما فأخذ غليونه وخرج من الكوخ.

رأى الصبي اليتيم كلّ ما جرى وشعر بالارتياب. فمضى نحو الموقد وادّعى أنه ينظّف الرماد؛ وحين أحسّ أن العجوز لا تنظر إليه حرّك الحطب فاضطرمت النيران وتوهّج نورها مما مكّنه من رؤية وجهها بوضوح. وعندئذ تأكّدت له شكوكه.

سألها: «أين هي عصفورة الثلج؟».

قالت: «صه! إنها تتأرجح عند البحيرة». لم يقل الصبيّ شيئاً، لكنه خرج من الكوخ ومضى إلى البحيرة. وهناك رأى الأرجوحة المقطوعة، ثم عاد وبحث عن «الدبّ البني» وأخبره بما اكتشفه.

Twitter: @ketab_n

لم يكن «الدبّ البنيّ» يحبّ أن يفكّر بالسوء بأمه، وبالتالي لم يطرح عليها أي سؤال. بل خرج بحزن من الكوخ. ثم أخذ بعض الطلاء الأسود ولطّخ وجهه وجسده به كعلامة على الحداد. وحين انتهى قلَبَ حربته رأساً على عقب، وبعد أن غرزها بالأرض صلى للبرق والعواصف والمطر، داعياً أن تعاود زوجته النهوض من البحيرة.

صار كل يوم يذهب إلى هناك، لكن لم يرَ أيّ إشارة عن محبوبته «عصفورة الثلج»، مع أن العاصفة هدرت بقوة وشقّ البرق شجرة السنديان الضخمة بجوار الكوخ من أعلاها إلى أسفلها. راح ينتظر في المطر، وفي الشمس، وكلما استقرّ القمر الكبير الأبيض فوق البحيرة، لكنه لم يرَ شيئاً.

في الأثناء اعتنى الصبي اليتيم بيمام الصغير، تاركاً إياه يمتصّ اللحم الأشهى والأكثر عصارة، وجالباً له الحليب لكي يشربه. وصار يأخذه في العصارى إلى ضفة البحيرة ويسليه برشق الحصى في الماء. فيضحك يمام الصغير ويصيح ويمد يديه الصغيرتين، ثم يأخذ حصاة ويحاول أن يرشقها في الماء بنفسه، ورغم وقوعه المستمرّ أرضاً، فقد كان شديد البهجة والسرور.

Twitter: @ketab_n

ذات يوم بينما هما يلعبان على هذا النحو رأيا نورساً أبيض ينهض من قلب البحيرة ويطير نحوهما إلى الشاطئ. وحين وصل إليهما حام فوق رأسيهما، واقترب منهما حتى بات يمام الصغير قادراً تقريباً على لمس جناحيه الكبيرين الواسعين. ثم فجأة تحوّل هذا النورس إلى امرأة، ولم تكن هذه المرأة سوى «عصفورة الثلج»، أم «يمام» الصغير!

صاح الطفل مبتهجاً وتشبّث بحزامين من الجلد ومن المعدن الأبيض كانت أمه تتمنطق بهما. كانت عاجزة عن النطق؛ لكنها حملت الطفل، وأخذت تهدهده. ثم أومأت للصبيّ بإشارات فهم منها أنها تريد منه أن يأتي بالطفل إلى الموضع نفسه كلّ يوم.

حين عاد «الدبّ البنيّ» إلى البيت أخبره الصبي بما حدث.

وفي اليوم التالي حين بكى الطفل طالباً الطعام أخذه الصبي إلى ضفة البحيرة، وتبعهما «الدبّ البنيّ» متخفياً وراء الأشجار. وقف الصبي في المكان نفسه، على مقربة من ضفة البحيرة، واختار حصاة ناعمة مدورة ورفع ذراعه ببطء ورشقها بحذر نحو البحيرة.

Twitter: @ketab_n

سرعان ما ظهر النورس من الماء وقد تمنطق بحزام طويل لمّاع. اقترب من الضفة وحام حولهما لثانية، مثلما حدث في اليوم السابق، ثم تحوّل إلى امرأة سارعت إلى حمل الطفل بين ذراعيها.

وبينما هي تعتني بالطفل ظهر زوجها. كان لا يزال مكسواً بالطلاء الأسود، لكنه حمل الحربة بيده.

هتف بزوجته متلهفاً: «لماذا لم تعودي إلى البيت؟»، ثم دنا منها لكي يعانقها.

لم تستطع الكلام، لكنها أشارت إلى الحزام اللماع الذي تتمنطق به.

رفع «الدبّ البنيّ» حربته بحذر وسدّد ضربة قوية إلى حلقات الحزام، فتحطّمت أشلاء وسقط الحزام أرضاً، ليتبيّن أنه مكوّن من الأصداف الكبيرة.

ثم عادت المقدرة على النطق إلى «عصفورة الثلج» وروت كيف أنها حين وقعت في البحيرة أمسك بها نمر الماء ولفّها بذيله وجرّها إلى الأعماق.

Twitter: @ketab_n

هناك وجدت كوخاً كبيراً جدرانه زرقاء مثل ظهر طائر زرياب أزرق حين تشعّ عليه الشمس، وخضراء مثل أول أوراق الذرة وذهبية مثل الرمال البراقة على جزيرة «كاريب»[1]؛ وكانت الأرضية الرملية بيضاء كثلوج الشتاء. لم يكن هذا سوى كوخ زعيم نمور الماء، الذي يعيش مع أمه «الحية القرناء».

اضطجعت الحيّة في صدفة كبيرة بيضاء فيها عقد من النحاس تلمع مثل نيران المخيمات البعيدة. لكن هذه لم تكن شيئاً مقارنة بالحجر الأحمر الذي توهّج بقوة على جبهتها. كما كساها جلد كثيف كجفن رجل، وهذا الجفن يقفل حين تنام. وكان قرناها بالغي الروعة، ففيهما يمكث السحر. وحين يلامسان صخرة عظيمة فإنها تنشق فوراً ويحدث فيها طريق كلما أرادت الحية المرور.

وكان في بلاد نمور الماء غابات تشبه وريقات أشجارها وريقات الصفصاف بيد أنها أطول قليلاً وأجمل وأعرض، وأجمات من العشب الناعم الداكن.

(1) Caribs: الكاريبيون أو الهنود الحمر الذين سكنوا بجوار البحر الكاريبي، وأصبح يحمل اسمهم (م).

Twitter: @ketab_n

حين يهبط الليل ولا يعود شعاع الشمس يبلغ الكوخ وتعتم الجدران، تضيء حشرات سراج الليل الخضراء والزرقاء والقرمزية والبرتقالية، في الأشجار خارج كوخ نمر الماء، وتدخل أجملها إلى الكوخ لترفرف حول تاج الحية، واقفة تحرسها بينما تأوي إلى النوم الحلازين القرمزية، حارسة النهار.

ارتجفت «عصفورة الثلج» خوفاً حين رأت هذه الأشياء وأغمي عليها أمام الحيّة العظيمة ذات القرنين. لكن نمر الماء هدّأ من روعها، إذ أنه أحبها وأرادها زوجة له. وقد وافقت على ذلك مقابل شرط واحد وهو أن يسمح لها بالعودة من وقت لآخر إلى شاطئ البحيرة لكي ترى طفلها.

استشار نمر الماء أمه الحية، التي وافقت على أن تعيره جناح نورس يغطي زوجته بالكامل ويمكّنها من الطيران إلى الشاطئ. لكنها قالت له أن يشدّ زمام ذيله بقوة حول خاصرتها وإلا هجرته حين تجد نفسها قريبة من بيتها. ففعل ذلك، وحرص على وضع حزام من الجلد حولها، خشية من أن تجرح حلقات المعدن الأبيض جلدها الرقيق.

Twitter: @ketab_n

وهكذا عاشت مع نمر الماء، واعتنت بكوخه وصنعت الأحذية لنمور الماء الصغار من جلد القندس ومن حراشف السمك الجاف، وكانت سعيدة جداً كما يمكن أن تكون في منزلها مع زوجها «الدبّ البنيّ» وطفلها «يمام» الصغير.

وهكذا أنهت «عصفورة الثلج» حكايتها. ثم عادوا جميعاً إلى الكوخ. وما إن رأتهم العجوز، أم «الدبّ البنيّ»، واقفين بالباب حتى قفزت عالياً وطارت من الكوخ، ولم يرها أحد بعد ذلك.

Twitter: @ketab_n

# القيّوط أو ذئب البراري

في البداية، عاش «الكهروكس» على ضفاف نهر كلاماث[1]، وراء صحراء نبات الميرمية وبعيداً عن جبال روكي، حيث تهبط الشمس، وكان لديهم الكثير من النعم. كانت غاباتهم غنية بالظباء السمينة. ورغم شراسة الدب، فقد كان لحمه شهياً، وكان «الكهروكس» ينمون أقوياء من تناولهم إياه. لكنهم كانوا يتوقون إلى نعمة النار. وفي المساء حين يظهر الأحمر الرائع في السماء كانوا يشخصون نحوه متمنين أن يقبضوا ولو على شرارة واحدة من نجوم السماء.

كانت كل نيران العالم في ذلك الوقت واقعة تحت سيطرة ساحرتين شمطاوين تعيشان عند مصبّ النهر وكانتا تراقبانها بحرص غيور. كما كانتا تتحكمان بمفتاح السدّ الذي يصد وراءه السلمون المتلألئ.

(1) Klamath River: نهر كبير يمتد بين جنوبي أوريغون وشمالي كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية، ويشتهر بثرائه بأسماك السلمون (م).

Twitter: @ketab_n

كان «الكهروكس» يمقتون الساحرتين، وراحوا يتفكّرون بحيلة ما لخداعهما، لكي يتمكنوا من تحرير السلمون، لكن أكثر ما كانوا يريدونه هو النار الثمينة. فكانوا يضطجعون مرتجفين تحت دثار جلد الدبّ السميك، لأن الليالي طويلة وباردة في بلادهم، ورياح الشمال تهب في وجوههم وتجرحهم بحرباتها الجليدية وسهامها الثلجية.

حاولوا مرات عدة سرقة النار. وقد عرض الأغنياء منهم، ممن يملكون الكثير من «الوامبام»[1]، شراءها، بينما حاول بعض المخادعين تملّق الشمطاوين لكي تمنحانهم النار، لكن ذهبت كل هذه المحاولات أدراج الرياح. وأخيراً فكروا في أن يستعينوا بالحيوانات. لكن مَن من الحيوانات لديه من المكر والشجاعة ما يمكّنه من تنكّب مهمة كهذه؟ كان الدب شديد الخرق والتذمّر، والأيل طويلاً جداً يكاد قرناه يرتطمان بعامود الكوخ؛ والكلب يفتقر إلى الحكمة، والأفعى غير معروفة بإسدائها أي معروف للكهروكس أو لأيّ بشر سواهم.

اجتمع شيوخ القبيلة يدخنون الغليون ويتفكّرون في المسألة، واستقرّ أمرهم أخيراً على أن يطلبوا من القيّوط القيام بهذه المهمة،

(1) الأصداف التي كانت تستعمل لتزيين الأحزمة والأخفاف، وما تورده الكاتبة هنا من أنه يستعمل بمثابة المال عند الهنود الحمر، ليس بالأمر الدقيق (م).

Twitter: @ketab_n

لأنه كان هزيلاً وجائعاً ويمكن أن يسعد بنيل بعض الطعام. أكثر من ذلك قد يشعر بالفخر إذا طلب الكهروكس خدمة منه، لأنه حتى أدنأ الوحوش كانت تنظر إليه بتعال بسبب اضطراره إلى بذل الكثير من الجهد لكي يؤمّن قوته.

فذهبوا لمقابلة القيّوط. كان بيته في الصحراء في وسط الطريق إلى الجبل، حيث كان يجثم وراء أجمة نبات الميرمية، لكي يتمكّن من مراقبة الدم الذي يسفكه الصياد، واللحم الذي يرمى، أو الحيوانات الصغيرة والضعيفة كثيراً بالنسبة إليه لكي يصطادها. وقد كُتب على القيّوط أن يظلّ جائعاً، لأنه حين أطلق الروح العظمى الحيوانات في الأرض لكي يسعى كل منها وراء فريسته، وهبَ القيّوط الشاة الجبلية لكنها فرّت منه، ومنذ ذلك الوقت يفتقر إلى مهارة الصيد.

وجده «الكهروكس» يتشمّم الأرض بحثاً عن أثر صيد ما. وحين أخبروه بالغرض من مجيئهم، شعر بالإطراء، لكنه كان أمكر من أن يظهر ذلك. شرحوا له المهمة، بيد أنه لم يعدهم بفعل شيء، وإن أخذ الطعام الذي قدّموه له؛ بعض لحم الكلاب، وشرائح الثور البري، وكلية الدب، وهي مشهيات عادة ما يكرّم بها «الكهروكس» ضيوفهم. وعندئذ لم يعد قادراً على إخفاء بهجته، ولا أن يرفض ما طلبوه منهم.

Twitter: @ketab_n

لم يكن بحاجة إلى الصيد في تلك الليلة، فتكوّم على نفسه، ووضع أنفه بين أنيابه، ولف ذيله حول قوائمه لكي يدفئها، وللمرة الأولى في حياته شعر بالراحة الحقيقية. وسرعان ما غطّ في النوم، لكن ليس قبل أن يزمع أمره بأنه يستحسن به القيام بأقصى جهوده لـ «الكهروكس»، فذلك أفضل بكثير من الصيد المضني في الصحراء.

في صباح اليوم التالي خرج باكراً لكي يوفّر المساعدة من سائر الحيوانات لأنه لم يكن قادراً على فعل شيء بمفرده. لم تجرؤ الحيوانات الصغيرة على رفض طلبه، أما الكبيرة فأشفقت على المسكين وأعربت عن استعدادها لمساعدته أيضاً.

وضع القيّوط ضفدعاً على مقربة من مخيم «الكهروكس»، ثم وضع سنجاباً، ثم خفاشاً، ودباً، وكوجراً[1]، على مسافات معينة، ورتّب مواضعها بحسب قوتها ومشقة الطريق. وأخيراً طلب من أحد «الكهروكس» أن يختبئ في أجمة قرب الكوخ حيث تعيش الساحرتان الشريرتان.

ثم تقدّم القيّوط ببطء من الباب وراح يحفه بمخالبه مستأذناً

(1) الأسد الأمريكي (م).

Twitter: @ketab_n

الدخول. ذهبت إحدى الأختين لتستطلع ماذا يريد وسمحت له بالدخول؛ بالتأكيد ما كانتا تخشيان من قيّوط بائس. سار متهالكاً إلى وسط الكوخ، حيث وقع أرضاً كأنما من شدة التعب، وراح يرتجف بشدّة اهتزّ بسببها عامود الكوخ.

التفتت نحوه الساحرتان المقعيتان أمام النيران تشويان السلمون، وقالت إحداهما: «ادنُ من النار إذا كنت تشعر بالبرد»، وأفسحت له في المجال أمام الموقد مباشرة.

جرّ القيّوط نفسه إلى الموقد وجثم هناك واضعاً رأسه فوق مخالبه. وحين شعر بالدفء نبح مرتين كإشارة للرجل في الخارج.

ظنت الساحرتان أنه نبح استمتاعاً بالنار. فقالتا: «ها! ها! أما كان الكهروكس ليحبوا ذلك؟».

في هذه اللحظة سمعت الساحرتان صوتاً قوياً، صوت طرق حجارة على الكوخ، فهرعتا إلى الخارج لكي تتخلصا من المتطفّل.

Twitter: @ketab_n

فوراً أمسك القيّوط حطبة نصف محترقة وفر بها بسرعة البرق عبر الغابة. طاردته الساحرتان، لكن حين سمع زعيقهما زاد من سرعته.

اقتربتا منه أكثر فأكثر حتى كادتا تصلان إليه وكانت قواه تخور بسرعة. ولكن لحظة وضعتا عليه أيديهما رمى الحطبة، فحملها الكوجر الذي كان بانتظاره وركض بوثبات طويلة على الطريق الملتف. تبعته الساحرتان، لكنهما لم تكونا قادرتين على مجاراة سرعته، وأخيراً سلمها إلى الدب.

كان الدب شديد الخرق فأوقعها مرات عدة من كفيه الأخرقين، فتمكنت الساحرتان من الوصول إليه بسرعة؛ ولو لم يلتقطها الخفاش ويطير بها عالياً لما حصل «الكهروكس» على النار. أما الدب العجوز، فقد راح يتدحرج على الأرض في الغابة من شدّة الإنهاك.

قاد الخفاش الساحرتين في مطاردة ملتوية فوق الأشجار، وقد بات يطير عالياً الآن، قريباً من رأسيهما، حتى أنهكهما. لكنهما تشجعتا حين رأتا السنجاب يقفز إلى الأمام لكي يمسك الحطبة التي أسقطها الخفاش من علو عظيم. قالتا: «بالتأكيد يمكننا الإمساك به»، ورفعتا أطراف تنورتيهما وطاردتاه بسرعة رهيبة.

Twitter: @ketab_n

طوال الوقت ظلت الحطبة متقدة وصارت حارة جداً فبالكاد تمكّن السنجاب من حملها. لكنه كان حيواناً صغيراً شجاعاً وراح يقفز بثبات عبر الغابة، وإن احترق ذيله بشدة حتى التوى إلى أعلى ظهره وكتفيه. وهو يحمل علامات الاحتراق إلى يومنا هذا.

وفي اللحظة التي ظنّ فيها أنه سيضطر إلى إسقاط الحطبة، لمح الضفدع. كانت الحطبة قد صارت قطعة صغيرة عندئذ حتى بالكاد تمكن الضفدع من أخذها منه، لكنه أمسك بها ومضى قدماً. أعماه الدخان المنبعث من الحطبة وآلم عينيه بحيث فقد أثر الطريق وسرعان ما سمع الساحرتين قريباً منه.

كان آخر الحيوانات ولم تكن تفصله عن «الكهروكس» سوى البحيرة. فراح قلبه يخفق بقوة بين ضلوعه وأوقع الحطبة لكي يلتقط أنفاسه قبل أن يقفز في الماء، حين انقضت الساحرتان عليه.

إلا أنه كان أسرع منهما. فتمكن من مراوغتهما وابتلع الحطبة وقفز في البحيرة. قفزتا وراءه، لكن بلا فائدة، لأنهما لم تكونا تجيدان السباحة. فتمكن من الفرار. أما الساحرتان فاضطرتا إلى العودة أدراجهما إلى الكوخ عند مصبّ النهر.

Twitter: @ketab_n

كان «الكهروكس» ينتظرون على شاطئ البحيرة، وحين عبر الضفدع رحّبوا به بصرخات الفرح. لكن أين هي النار؟ لم يضع الوقت بأن يريهم، إذ بصق الشعلات فوق حزمة من الهشيم التقطت النيران بسرعة. لكن الضفدع فقد ذيله نتيجة ذلك ولم ينبت ثانية أبداً. أفراخ الضفادع ما زال لها أذيال لكن حين تصبح ضفادع ناضجة تطرحها احتراماً لسلفها الشجاع، وهو ملك جميع الحيوانات التي تسكن مستنقعات وسبخات بلاد «كلاماث».

بعد إفلاحه في الحصول على النار أصبح القيّوط محبوباً من «الكهروكس»، وتناول ألذ الطعام الذي يؤتى به إلى المخيم.

لم يشعر «الكهروكس» بالرضا حتى بعد أن صاروا يتناولون اللحم والذرة المشويين، لكنهم اضطروا إلى تملّق القيّوط لكي يذهب ويأتي لهم بالسلمون. شرحوا له أن الأسماك الكبيرة البرّاقة موجودة وراء سدّ عظيم عند مصبّ النهر وأن الساحرتين اللتين سرق منهما النار تحتفظان بمفتاح السدّ.

كان القيّوط مستعداً للقيام بالمهمة لكنه قال: «انتظروا قليلاً حتى يتبدّل معطفي لكي لا تعرفني الساحرتان».

فانتظروا حتى صار فراؤه سميكاً وباهت اللون، وحين صار

Twitter: @ketab_n

مستعداً رافقوه بالأغاني والصياح إلى حدود القرية.

مضى في رحلة استمرّت أياماً على امتداد «كلاماث»، حتى وصل إلى مصبّ النهر، حيث رأى كوخ الساحرتين. قرع الباب. كانت الساحرتان نائمتين بجوار الموقد، لكن إحداهما أيقظها الصوت فدمدمت: «ادخل».

بدلاً من أن يدخل القيّوط مطرق الرأس، ذابل الذيل، متظاهراً بالتعب كما فعل في المرة السابقة حين سرق النار، دخل هذه المرة مرفوع الرأس، منتصب الذيل ونظر مكشراً في وجه الساحرتين. كان أعظم بدناً الآن وقد سمن من الغذاء الجيد، فلم تعرفه الساحرتان.

طهتا السلمون لكنهما لم تقدّما له شيئاً. وهو لم يطالب بشيء لأنه لم يكن جائعاً، فقد تناول الطعام الذي قدّمه له «الكهروكس». وأخذ يفكّر: «ها! عما قريب سأحصل من الكهروكس على كل ما أحتاج إليه من السلمون».

في صباح اليوم التالي ادّعى أنه نائم حين نهضت الأخت الكبرى وذهبت إلى الخزانة لكي تأتي بمفتاح السدّ، ذلك أنها كانت ذاهبة للإتيان بالسلمون للإفطار. حين غادرت الكوخ مطّ نفسه بتكاسل ومشى ببطء نحو الباب. ما إن أصبح في

Twitter: @ketab_n

الخارج حتى ركض نحو العجوز ورمى نفسه بين رجليها، فوقعت أرضاً، وخلال ذلك أوقعت المفتاح. فأخذه القيّوط وهرع إلى السدّ وفتحه.

اندفعت المياه الخضراء الفوّارة بالسلمون الفضي بسرعة شديدة حتى إنها لم تحطّم القفل فحسب بل السدّ نفسه، ومنذ ذلك الوقت حصل «الكهروكس» على كل السلمون الذي يريدونه.

شعر القيّوط بالفخر لنجاحه ولم يكن راضياً باللطف والتبجيل الذي أظهره نحوه «الكهروكس». بل رغب في الرقص في السماء. فاختار نجمة زرقاء برّاقة لكي تكون شريكته في الرقص وراح يناديها ليلة بعد ليلة لكي تشاركه الرقص. أخيراً سئمت النجمة من صياحه؛ وذات ليلة طلبت منه أن يصعد إلى أعلى الجبل وأخبرته أنها ستهبط بما يكفي إليه لكي ترقص معه.

استمتع القيّوط بالأمر لبعض الوقت، لكن حين رفعته إلى أعلى فأعلى بدأ يشعر بالبرد، حتى تجمّدت مخالبه ووقع من يدي شريكته، وسقط في الشقّ العظيم الذي بين السماء والأرض على حافة العالم.

ظلّ يهبط ويهبط حتى اختفى كلّ أثر له؛ لأنه لم يكن مسموحاً للقيّوط أن يراقص النجوم.

Twitter: @ketab_n

# كيف قاتل البوفالو المجنون[1]
# طائر الرعد

في سالف الأزمان امتلك الهنود كل الأرض المحيطة بالبحر الأزرق الكبير. كان روح الخير قد دخّن غليون السلام في محجر الحجر الأحمر ودعا الأقوام كافة لكي تأتي إليه. ونزولاً عند أوامره غسلوا طلاء الحروب عن وجوههم، ودفنوا هراواتهم وفؤوسهم، وصنعوا لأنفسهم غلايين من الحجر الرملي الأحمر مثل ذلك الذي صنعه هو. وهم أيضاً دخنوا غليون السلام ولم يعد من حروب بين الأقوام، لكن كل قوم بقوا بجوار نهرهم يصطادون فحسب الظبيان والقنادس والدببة والبيسون[2].

في تلك الأيام السعيدة كان يعيش على شاطئ الأزرق الكبير، الذي يقع مباشرة تحت نجمة الدّلق[3]، هندي يثق به كل قومه، لأنه لم يكن ثمة من يضاهيه في الشجاعة والحكمة والتدبّر. وكانوا منذ طفولته يترقّبون منه القيام بعظيم الأعمال.

(1) جاموس الماء (م).
(2) الثور الأمريكي (م).
(3) حيوان مشهور بفرائه (م).

Twitter: @ketab_n

غالباً ما سيطر على الغريزلي[1] والبوفالو القوي. وذات مرة اصطاد بوفالو كبيراً وقوياً إلى حدّ أن دزينة من السهام لم تستطع قتله، ومنذ ذلك اليوم بات يعرف باسم «البوفالو المجنون».

حين تدعو الحاجة إلى القرون السحرية لمعالجة الناس كان البوفالو المجنون يمضي ليجلب زهرة القمر وبالحيلة لا بالسحر يقطفها من رأس الحية العظيمة ذات القرنين. ولهذا أحبه شعبه وكان دائماً ما يجلس مع كبار أهل قبيلته سناً وحكمة.

كانت مشكلتهم الكبرى في تلك الأيام طائر الرعد الغامض الذي كثيراً ما يرونه يحلّق فوق رؤوسهم. كان له جناحان أسودان دميمان، وبينما يحلّق مسرعاً يسوّد ظلهما الأرض. ولم يكن من ضرر في ذلك في الليالي المقمرة، لكن حين يمرّ نهاراً أو حين يكون الأمير القمر ذاهباً في رحلة لرؤية أخته الأميرة الشمس، ويختفي كوخه المتوهّج وراء الأحمر الرائع، كان طائر الرعد يؤذي كل من يقع في ظله.

كان الجميع متشوقاً لمعرفة مكان عشه، غير أن أحداً لم يجرؤ على اللحاق به، ولا اكتشف أي صياد مخبأه. وظنّ بعضهم أنه يعيش في داخل شجرة جوفاء، بينما ارتأى آخرون أن ملاذه في كهوف الحجر الرملي، لكنّ أحداً لم ير هذا الملاذ قطّ.

(1) دب بني ضخم في شمال أمريكا (م).

Twitter: @ketab_n

ذات يوم من أيام الشتاء مضى «البوفالو المجنون» بحثاً عن القوت لعائلته. كان عليه السفر إلى مقام القنادس عبر مياه الأزرق الكبير وفي أعالي النهر. وقد تمكن من أسر قندس سمين، وحمله على كتفيه وهمّ بالعودة إلى داره مع ظهور القمر المكتمل عبر أعالي الأشجار.

وبينما يخوض في النهر، وقد لاح له كوخه، عبر فوقه ظلّ عظيم، بدّد كلّ النور. وبعد مضيه نظر «البوفالو المجنون» حوله بحثاً عن السبب. كان الليل وضاحاً والقمر مشعاً مما مكّنه من رؤية كوكبة الدلق وإن بشكل باهت، لكن الأشياء حوله كانت بوضوح النهار.

في البداية لم يرَ شيئاً لأن طائر الرعد كان فوقه مباشرة، لكن بينما يحوم فوق رأسه لمحه. هبط الطائر سريعاً، ثم رفعه بكل ما معه في الهواء. فشعر «البوفالو المجنون» بأنه يرتفع ببطء حتى بات عالياً فوق الأرض، لكن ليس إلى درجة ألا يرى ما الذي يجري في القرية. تمكّن حتى من رؤية كوخه وأطفاله على باب الكوخ. وقد رأوه بدورهم وتملكّهم الذعر. ولم تستطع أمهم تهدئتهم، لأنهم كانوا يحفظون عن ظهر قلب كل القصص الرهيبة التي تُروى عن هذا الطائر. وقد رأوا بأنفسهم شجرة

Twitter: @ketab_n

البتولا الرائعة التي اعتادوا تسلّقها، وقد اقتلعت من جذورها وارتمت ميتة في الغابة. وكذلك شجرة السنديان التي يجتمع تحتها المحاربون شُقت حتى قاعدتها من قبل هذا الوحش الرهيب. كما أحرق شجرة السّدر الصفراء التي كانوا يستعملون أغصانها لبناء الزوارق التي تشقّ عباب الأزرق الكبير.

بيد أن قلب «البوفالو المجنون» لم يخذله. فأمسك بحربته بحزم وانتظر الفرصة السانحة لكي يقاتل الوحش. أسرع فأسرع مضيا شمالاً مباشرة فوق الأزرق الكبير، مرتفعين في السماء أعلى فأعلى، حتى وصلا إلى الجبل العظيم الذي لا تنبت فيه الأشجار. كان أعلاه كناية عن صخرة صلبة جرداء، أما السفوح فتشكّلت من الجلاميد المروّسة، وقد برزت رقعة من العشب الضاري هنا وهناك، وبعض أجمات الوزّال الواهنة. وكان عشّ طائر الرعد يقع على جرف في الصخرة الأعلى فوق المياه، وقد صُنع من عظام البشر، ونُسج من جماجمهم ومن الريش الذي كانوا يكسون أنفسهم به أحياء.

ومع ذلك لم يجزع «البوفالو المجنون». وحين اقترب الطائر من عشه راح ينعب عالياً، وتردد صدى نعيبه حتى صار يصمّ الآذان. الأسوأ من ذلك، أن الكائن حاول جعله يرتطم بصخرة،

Twitter: @ketab_n

جاراً إياه نحوها بجناحيه؛ وحين لامسه الجناحان وخزه جلده وأحرقه كأنما لمسه الجمر. لكنه تمكّن، عبر رفع نفسه بقوة وموازنة حربته، من تجنب الأذية. ثم قاده الطائر إلى عشه وتركه هناك وحلّق مبتعداً.

غاب «البوفالو المجنون» عن الوعي إنما لبرهات قليلة فحسب. وحين عاد إليه وعيه سمع أصوات رعود تأتي من موضع منخفض، ليكتشف أنه ترك تحت رحمة نسل من الرعود اليافعة الجائعة، والذي جُلب ليكون طعاماً لهم. بدأت الأفراخ بنقر رأسه فوراً، مصدرة نعيباً يشبه نعيب الطائر الكبير، لكنه ليس بالحدّة نفسها؛ لكن لأنها كانت كثيرة كان الصوت مرعباً أكثر.

حين تبيّن «البوفالو المجنون» أنها أفراخ صغيرة افترض أنها لن تكون مؤذية؛ وحين غاب الطائر الكبير عن الأنظار شرع في قتالها. مرتفعاً في الهواء قدر ما يستطيع ضرب إحداها بحربته. فانقضت جميعاً عليه، ضاربة إياه بأجنحتها ورامشة عليه بعيونها الحمراء الدموية الطويلة التي ترشق سهاماً من البرق جرّحت يديه ووجهه. وعلى الرغم من الألم حاربها ببسالة؛ لكن حين ضربته بأجنحتها الحادة كان ذلك مثل سهم مسموم أو لسعة حية.

فرخاً بعد الآخر، خذلتها قواها وتمكّن من إسقاطها في العش.

Twitter: @ketab_n

ثم أمسك بأكبرها وأقواها وانتزع رقبته ورماه من فوق الجرف. حين رأت الفراخ ذلك التمّت على بعضها ولم تحاول لمسه ثانية.

أمسك بواحد آخر وانتزع قلبه ورمى الجسد واحتفظ بالجلد على حافة العش لكي يجفّ. ثم ملأ غليونه من جيب مصنوع من جلد الذئب يتدلى من حزامه، وجلس يدخّن. وبينما يستريح انتزع رؤوس بقية الطيور ورماها فوق الأزرق الكبير محتفظاً بقلوبها ومخالبها فحسب.

حين انتهى من قتلها جميعاً جرّ أربع سحبات قصيرة من غليونه، مشيراً بذلك إلى ممالك الرياح الأربعة، طالباً مساعدتها. ثم تدثّر في داخل الجلد الجاف، وأحكمه حول نفسه بالمخالب التي وفّرها، وغرز قلوب الرعود الصغيرة في رأس حربته وبدأ يتدحرج نزولاً على سفح الجبل.

وبينما يتدحرج من صخرة إلى صخرة أخذت أرياش الجلد تومض مثل حشرات من نار. وحين قطع تقريباً نصف المسافة إلى الأسفل أخرج نفسه من الجلد، رافعاً الأجنحة بذراعيه، اكتشف أنه قادر على الطيران. طار ببطء في البداية، إلا أنه سرعان ما اعتاد على الحركة وطار أسرع وأسرع، حتى لم يعد الطائر الكبير قادراً على اللحاق به.

Twitter: @ketab_n

حلّق فوق الأزرق الكبير ثم فوق الغابة حتى وصل إلى المكان الذي خطف منه قبل عشرة أيام، وحطّ به، وانتزع عنه جلد الطائر وهم بالمضي إلى بيته.

لم يصدق زوجته وأولاده عودته؛ ذلك أنهم افترضوا أن الرعود الصغيرة قد التهمته منذ زمن طويل. وقام بشي قلوب الطيور التي راحت تطقطق وتهسهس حتى أمكن سماعها على بعد ميل من الكوخ، لكن لحمها كان شهياً ومليئاً بالعصارة.

لم يعد ذلك الطائر قطّ إلى ذلك الجزء من البلاد. وقد روى الصيادون الذين جاؤوا من جبال روكي أنه بنى عشاً بجوار القمة الأعلى، حيث أنشأ ذرية جديدة تهبط من وقت لآخر إلى الأرض، وتنهب الغابات وحقول الحنطة. غير أنها صارت تطير أعلى من السابق، ومنذ اليوم الذي قاتلها فيه «البوفالو المجنون» لم تعد تتدخل أبداً بالبشر. صارت أعشاشها تصنع من عظام الماعز الجبلي ومن شعر لحاها.

والآن حين يسمع الأطفال الهنود طقطقة النار يقولون إنها قلوب الرعود الصغيرة؛ لأن كل أقوامهم تعرف بمآثر «البوفالو المجنون» العظيمة.

Twitter: @ketab_n

# البجعة الحمراء

كان الزعيم العظيم، «الرعد الأحمر»، مسافراً مع زوجته وأطفاله الثلاثة إلى اجتماع للأقوام. حين اقتربوا من المكان المحدّد للاجتماع، رأى أحد الأطفال طائراً رائعاً يشق طريقه عالياً في الهواء. فأشار إلى السماء مصفقاً بيديه فرحاً، لأن الطائر كان يطير بسرعة نحو الأرض وكانت الشمس تتوهّج على ظهره وجناحيه العريضين.

بينما الابتسامة لا تزال مرتسمة على وجوههم ظهر الطائر فجأة فوقهم، وفي لحظة ضرب أمهم ورماها أرضاً، أغرقها في التراب حتى لم يظهر لها أي أثر. كانت قوة الضربة قوية إلى حدّ أن الطائر نفسه تحطّم أشلاء وانتشر ريشه في الأنحاء البعيدة. سارع الهنود المجتمعون لجمع الريش، لأن الريش الأبيض لا يسهل الحصول عليه وهو يثمّن عالياً في زمن الحروب.

Twitter: @ketab_n

وقف «الرعد الأحمر» عاجزاً عن النطق في ألمه العظيم. ثم أخذ أطفاله ومضى إلى الغابة ولم يره أحد بعد ذلك. أنشأ لنفسه كوخاً عاش فيه ولم يغادره قطّ. وحين لوّح الشتاء بخصلات شعره البيضاء وغطّى الأرض بالثلج، خرّ «الرعد الأحمر» صريعاً، وقد أصيب بسهم غير مرئي.

وهكذا بقي الفتية الثلاثة وحدهم. حتى أكبرهم لم يكن كبيراً أو قوياً لكي يتمكن من تأمين قوتهم، وكل ما كان في وسعهم فعله هو نصب الفخاخ للأرانب. وقد أشفقت حيوانات الغابة عليهم وأسبغت عليهم رعايتها. فصارت السناجب تترك البندق على بابهم، والدب البني العظيم يحرسهم ليلاً. كان الفتيان أصغر من أن يتذكروا والدهم، بيد أنهم كانوا شجعاناً فبذلوا كل ما في وسعهم لكي يتعلموا صيد السمك والحيوانات. وسرعان ما برع أكبرهم في ذلك وعلّم شقيقيه.

وحين صاروا جميعاً قادرين على الاهتمام بأنفسهم، أراد الأكبر تركهما والذهاب لاستطلاع العالم، لكي يجد أكواخاً أخرى ويأتي بزوجات لكلّ واحد منهم. رفض الصغيران ذلك وقالا إنهما يعيشان عيشة حسنة من دون غرباء، ويمكنهما الاستمرار في ذلك. فاستمروا بالعيش معاً ولم يقل شيء بعد ذلك عن مغادرة أيّ منهم.

Twitter: @ketab_n

ذات يوم أرادوا جعباً جديدة لسهامهم. فصنعها أحدهم من جلد القندس والثاني من جلد الحَمل، والثالث من جلد الذئب. ثم فكروا في صنع سهام جديدة. فصنعوا الكثير منها، بعضها من السنديان، وبعضها، الثمين جداً، من عظام فخذ ذكر الوعل. وتطلب منهم وقتاً أطول بكثير لكي يصنعوا رؤوس الصوان والحجر الرملي، لكنهم انتهوا أخيراً وباتوا مستعدين لرحلة الصيد العظيم. وضعوا الرهانات حول من يفوز أولاً، ووافق كلٌّ منهم على قتل الحيوان الذي اعتاد على صيده، وألا يقترب من ذاك الذي يعرف أنه ينتمي لأحد شقيقيه.

لم يكن الأصغر واسمه «الصوت العميق» قد مضى بعيداً حين التقى دباً أسود، لم يكن يحق له بحسب الاتفاق أن يصطاده. إلا أن الحيوان كان قريباً جداً منه فلم يستطع منع نفسه من رميه بسهامه. فخرّ الحيوان صريعاً عند قدميه. ولما كان تردده قد زال عندئذ بدأ يسلخ جلده.

سرعان ما بدأت عيناه تؤلمانه ففركهما بيديه الملطّختين بالدماء، وحين رفع نظره بدا كل شيء أحمر في ناظريه. فمضى إلى الغدير وغسل يديه ووجهه لكن الحمرة نفسها كانت ما زالت على الأشجار والأرض وحتى على جلد الدبّ الأسود.

Twitter: @ketab_n

وعندئذ سمع صوتاً غريباً، فترك الحيوان وذهب ليتبيّن مصدر الصوت. تتبع الصوت حتى وصل إلى شفة بحيرة كبيرة، حيث رأى بجعة رائعة تسبح. لم يكن ريشها يشبه أي بجعة أخرى رآها من قبل، لأنها كانت أرجوانية رائعة تلتمع في الشمس.

استلّ أحد سهامه وسدّده نحوها لكن السهم هوى قبل الوصول إليها. فرمى سهماً ثانياً وثالثاً حتى فرغت جعبته من السهام. ومع ذلك ظلت البجعة تغطس رقبتها الطويلة في المياه، متغافلة حضوره.

ثم تذكر أن هناك في الكوخ ثلاثة سهام سحرية كانت تخصّ والده. في أيّ وقت آخر ما كان ليفكّر في العبث بها، لكنه كان مصمّماً على صيد الطائر الرائع، فهرع مسرعاً إلى الكوخ وأحضر السهام ورماها. فمضى الأول على مقربة شديدة من الطائر لكنه لم يصبه. ووقع الثاني في الماء. أما الثالث فأصاب البجعة في رقبتها؛ غير أنها حلقت مسرعة باتجاه الشمس الغاربة.

شعر «الصوت العميق» بخيبة أمل، وعالماً أن أخويه سيغضبان منه لتضييعه السهام، أسرع إلى الماء وأحضر السهمين الأولين لكنه اكتشف أن البجعة الحمراء حملت معها السهم الثالث.

Twitter: @ketab_n

فكّر أنه بما أن البجعة مجروحة فلن تتمكن من الطيران بعيداً، لذا وبعد أن وضع السهمين السحريين في الجعبة، هرع لكي يطارد البجعة. ومضى عابراً التلال والقفار والغابات والسهول، حتى هبطت الظلمة أخيراً ولم يعد قادراً على رؤية البجعة.

وفي أثناء خروجه من الغابة تناهت إلى مسمعه أصوات بعيدة، وعلم أن هناك أناساً على مقربة من ذاك المكان. فنظر حوله ورأى قرية كبيرة على تلة بعيدة وسمع الحارس، وهو بومة كبيرة، ينادي: «جاءنا زائر»، فأجاب القوم بصوت عال «مرحى!».

اقترب «الصوت العميق» من البومة وقال لها إنه لم يأت بنية سيئة، بل طلباً للملاذ فقط. ولم تقل البومة شيئاً، سوى أنها قادته إلى كوخ الزعيم وأمرته بالدخول.

قال الزعيم: «تفضّل، تفضّل، اجلس هنا».

قدموا له الطعام ولم يطرحوا عليه سوى القليل من الأسئلة.

بعد ذلك قال الزعيم الذي كان يراقبه عن كثب: «يا ابنتاه، خذي خفّي صهرنا وإذا وجدتهما بحاجة إلى رتق، فارتقيهما».

Twitter: @ketab_n

فوجئ «الصوت العميق» كثيراً حين وجد نفسه متزوجاً بمثل هذه السرعة، لكنه قرّر أن يمنح الفتاة لأحد أخويه. لم تكن حسنة المظهر وبرهنت أنها سيئة المزاج حين حملت الخفين بطريقة فظة بحيث أن «الصوت العميق» تبعها وأخذهما منها وعلقهما بنفسه.

من شدة تعبه غفا بسرعة. وفي صبيحة اليوم التالي قال للفتاة: «من أيّ طريق ذهبت البجعة الحمراء؟».

أجابته: «أتحسب أنك قادر على الإمساك بها؟»، وأشاحت عنه غاضبة.

«أجل».

قالت: «يا للحماقة». لكن حين ألحّ عليها، مضت إلى الباب ودلته على الاتجاه الذي ذهب فيه الطائر.

كانت الدنيا عتمة وبما إنه لا يألف الطريق فقد مضى ببطء. وما إن بزغ نور الصباح حتى بدأ بالجري، وظلّ يجري طوال اليوم بأقصى سرعة، ومع اقتراب الليل استبدّ به التعب، وكم شعر بالسرور حين وجد نفسه على مقربة من قرية أخرى يمكنه أن يستريح فيها قليلاً.

Twitter: @ketab_n

هذه القرية أيضاً كانت تحرسها بومة رمادية كبيرة، رأته من مسافة فنادت على أهل المخيم: «جاءنا زائر!».

وقادت البومة «الصوت العميق» إلى كوخ الزعيم حيث لقي المعاملة نفسها التي لقيها في الليلة الفائتة. لكن هذه المرة كانت ابنة الزعيم رائعة الجمال ورقيقة السلوك، ففكّر الفتى: «هذه ستكون لأخي الأكبر، فهو لطالما عاملني بلطف».

نام بعمق طوال الليل واستيقظ قبيل الفجر؛ إلا أنه هذه المرة لم يضع الوقت لأن ابنة الزعيم أجابته فوراً عن أسئلته. قالت له إن البجعة الحمراء مرت بعيد عصرية البارحة، وأرته الطريق الذي سلكته، ودلته على الطريق الأقصر في القفار.

مضى ببطء حتى بزغت الشمس ثم بدأ يجري سريعاً مثلما فعل قبلاً. وكان رشيقاً في الجري، ذلك أنه كان يستطيع أن يطلق سهماً ثم أن يتجاوزه ويتركه يسقط خلفه. فعل هذا مرات عدة في اليوم الثاني لأن هذا كان يساعده على المضي أسرع. ومع اقتراب المساء، من دون أن يرى أي قرية، تابع السير قدماً، وهو يحسب أنه سيضطر إلى الجري طوال الليل.

Twitter: @ketab_n

بعيد حلول العتمة رأى وميض ضوء في الغابة، وحين اقترب أكثر وجد أنه ينبعث من كوخ منخفض صغير. اقترب منه بحذر واسترق النظر عند المدخل. كان ثمة شيخ هرم جالس قرب النار وقد ألقى رأسه على صدره.

ومع أن «الصوت العميق» لم يأت بأي حركة، فقد ناداه الرجل: «تفضّل يا حفيدي».

فدخل الفتى.

أمره الشيخ مشيراً إلى زاوية قبالته أمام الموقد: «اجلس هناك، والآن جفّف أشياءك، إذ لابدّ من أنك متعب، وأنا سأعد لك العشاء. قدري جاهزة قرب النار».

نظر «الصوت العميق» نحو الموقد لكنه لم يرَ أي قدر. ثم فجأة ظهرت قدر صغيرة مليئة بالماء. أخذ الشيخ حبة حنطة وثمرة عنبية واحدة ووضعهما في القدر. كان «الصوت العميق» جائعاً وفكّر أن الفرصة ضئيلة في أن يحظى بعشاء جيد.

حين غلت المياه رفع الشيخ القدر، وناوله طبقاً وملعقة مصنوعين من مادة القدر نفسها وأمره بأن يخدم نفسه بنفسه.

Twitter: @ketab_n

وجد «الصوت العميق» الحساء شهياً جداً حتى إنه سكب لنفسه مرات ومرات حتى أتى على كل القدر. وشعر بالخجل من نفسه، غير أنه كان جائعاً.

وقبل أن ينبس بكلمة قال له الشيخ: «كل، كل يا بنيّ، اسكب لنفسك»، واقترب من القدر فإذا به يمتلئ ثانية على الفور.

سكب «الصوت العميق» ثانية وتناول الحساء كله ومجدداً امتلأت القدر، حتى شبع. ثم اختفت القدر.

قال الشيخ حين فرغ «الصوت العميق» من تناول طعامه: «يا حفيدي، لقد انطلقتَ في رحلة شاقة، لكنك ستنجح. فلتكن قوي العزم فحسب، ولتكن مستعداً لكل الاحتمالات. في الغد ستمضي في طريقك حتى تغرب الشمس، ثم ستجد واحداً من إخواني «المانيتو»[1] وسيقدّم لك الطعام والملاذ وسيخبرك المزيد مما ليس مسموحاً لي بإخبارك إياه. فقط كن حازماً. وبعد غد ستقابل «مانيتو» آخر سيخبرك بكل ما ترغب في معرفته وكيف تستطيع تحقيق ما تصبو إليه».

اضطجع «الصوت العميق» على جلد الثور الأبيض الوثير ونام نوماً عميقاً؛ ذلك أن كلمات الشيخ أسعدته أيما سعادة.

(1) السحرة (م).

Twitter: @ketab_n

حضّر الساحر طعام الإفطار بالطريقة نفسها التي حضّر بها العشاء، وبعد ذلك مضى الفتى في طريقه. وجد الساحر الثاني مثلما قيل له، وقدّم له العشاء من قدر سحرية، وفراش وثير من جلد الثور.

ولم يبد الساحر الثاني واثقاً من أن الشاب سيصيب النجاح «كثر عبروا قبلك هذه الطريق، ولم يعد أحد منهم. سنرى. سنرى».

قال هذا الكلام اختباراً لشجاعة «الصوت العميق»؛ بيد أن الأخير تذكّر كلام الساحر الأول الذي قال له أن يكون حاسماً عازماً.

وبعد أن تناول الإفطار في اليوم التالي هرع مسرعاً، لأنه كان متشوقاً للقاء الساحر الثالث الذي سيخبره كل شيء عن البجعة الحمراء. لكن مع أنه ركض طوال اليوم لم يصل إلى الكوخ الثالث في وقت أبكر مما وصل إلى الكوخين الأولين.

وبعد أن تناول العشاء كما في الليلتين السابقتين، قال له الساحر: «يا حفيدي، في ليلة الغد ستصل إلى كوخ البجعة الحمراء. إنها ليست بطائر، بل هي فتاة رائعة الجمال، أجمل فتاة على قيد الحياة. والدها ساحر وثري بالكنوز. وقد جاء بالوامبام

Twitter: @ketab_n

من بحيرة «غريت سالت لايك»؛ غير أنه يعتبر ابنته كنزه الأعظم. والبجعة الحمراء تحبّ أباها وقد أمضت حياتها وهي تسعى إلى نيل رضاه. وقد ساء حظّ الشيخ فأضاع قلنسوة «الوامبام» التي كان يحكم وضعها على رأسه ولا يخلعها البتة، لا في الليل أو النهار. وحدث أن سمعت قبيلة من الهنود بأمر هذه القلنسوة، فأرسلت إليه وفداً لكي يطلب إليه الحضور، وقالوا له إن ابنة الزعيم مريضة جداً وإنه لن يشفيها سوى شيء واحد وهو رؤية تلك القلنسوة السحرية. لم يشكّ الساحر بأمر الرسل، وإن حاول إقناعهم بأن يحضروا الفتاة إليه. فأخبروه باستحالة حملها، فنزع الرجل القلنسوة وأعطاهم إياها رغم ألمه الشديد. لكن كانت القصة برمتها ملفقة؛ وحين حصلوا على القلنسوة، علقوها على سارية لكي تنقرها الطيور، ولكي يسخر منها الغرباء. لم يكن الشيخ قوياً بما فيه الكفاية لكي يذهب ويستعيد القلنسوة، لكن قيل له إن محارباً شاباً سيأتي ذات يوم ويستعيدها له. وقد اعتادت البجعة الحمراء أن تذهب في قمر الأوراق الساقطة[1] لكي تبحث عن هذا الشجاع وقد وعدت بأن تهب نفسها زوجة لمن يفلح في هذه المهمة. يا حفيدي، كثر تبعوها وأخفقوا لكنني أظن أنك ستكون أكثر حظاً منهم. حين تقابل الساحر في كوخ

(1) في الخريف «م».

Twitter: @ketab_n

البجعة الحمراء، سيسألك أشياء كثيرة. فارو له أحلامك وما فعلته لك أرواحك الحامية. ثم سيطلب منك أن تستعيد له القلنسوة وسيريك ماذا تفعل لكي تجد أولئك الذين سرقوها وتعاقبهم».

سرّ «الصوت العميق» غاية السرور حين سمع أنه قد يفوز بزوجة رائعة كهذه. فراح يجري قافزاً بمرح في الغابة في اليوم التالي، ولم تدر بخلده قط فكرة أنه قد يخفق. ومع دنوّ المساء سمع أنيناً عميقاً ينبعث من كوخ فعلم أنه كوخ «البجعة الحمراء».

لم يطل به الوقت حتى وصل إلى كوخ جميل، وحين دخل رأى الساحر جالساً في الوسط، ممسكاً رأسه بكلتا يديه وهو يتأوه ألماً.

حضّر له الشيخ العشاء بنفسه، لأنه لم يكن مسموحاً لأحد أن يرى «البجعة الحمراء»، أو حتى أن يعرف أنها في الكوخ. إلا أن «الصوت العميق» رأى ستارة على باب الكوخ، وحسب أنه سمع حفيف الرياح.

لم يخذله قلبه، وأجاب عن أسئلة الشيخ بصدق وأناة. وحين أخبره بأحلامه. وبعد كل حلم كان الساحر يهزّ رأسه ويقول: «لا، ليس هذا هو، هذا ليس الحلم الصحيح»، حتى كاد يقرّر

Twitter: @ketab_n

«الصوت العميق» ألا يحكي له المزيد. لكنه لم يكن مستعداً أيضاً للتخلي عن «البجعة الحمراء»، فتذكّر أخيراً حلماً مختلفاً كلية عن الأحلام الأخرى، فرواه من فوره.

استبدّت الحماسة بالساحر قبل أن ينهي «الصوت العميق» قصته، وصاح: «هذا هو، هذا هو! أنت من ستعيد إليّ الحياة! هذا ما كنت أنتظر من شاب قوله. أستذهب وتأتي لي بالقلنسوة؟».

أجابه: «أجل، ويوم بعد غد، حين تسمع صوت الصقر الليلي عليك أن تمدّ رأسك من باب الكوخ. وستراني آتياً مع القلنسوة التي سأضعها على رأسك قبل أن أدخل. فقد منحني الطعام السحري الذي تناولته القدرة على تغيير شكلي فسآتي على هيئة صقر ليلي، وسأصرخ لكي أعلمك بنجاحي. جهّز هراوتك الحربية التي سأمسكها لكي أضرب بها حين آتي».

حين بدأ «الصوت العميق» بالتكلم لم يكن يعرف ما الذي سيقوله، لكن بينما ينظر إليه الساحر تدفقت الكلمات وحدها. وعلى الرغم من كل الحكايات التي سمعها عن الشبان الذين مثلوا أمام الساحر، فقد كان «الصوت العميق» متحمساً للانطلاق في مهمته. فنهض باكراً في الصباح وذهب في الاتجاه الذي أشار به الشيخ.

Twitter: @ketab_n

حين رأى القلنسوة من بعيد ظنّ أن لا أحد بجوارها؛ لكن حين اقترب منها أكثر وجد حولها رجالاً بعدد أوراق الشجر. وإذ أدرك أنه لن يتمكن من المرور من دون أن تلحق به الأذية، بدّل هيئته إلى طائر غرّيد وطار قريباً من القلنسوة لكي ينظر إليها، غير أنه لم يلمسها، خشية من أن يصيبه أحدهم بسهم ما.

كانت القلنسوة معلقة على سارية عالية ولا يمكن أن يفكها أي طائر من دون أن يلحظه الآخرون. وبالتالي غير «الصوت العميق» شكله إلى نبتة هندباء برية غطت القلنسوة. ثم مدّ أصابعه الفضية بين الخيوط وفكها وحمل القلنسوة ببطء، لأنها كانت ثقيلة جداً فلا يسع شيء صغير حملها.

حين رأى الحشد في الأسفل القلنسوة تتحرك وتُحمل بعيداً، صاحوا صيحة عظيمة وركضوا خلفها، رامين وابلاً من السهام. لكن الريح أبعدت السهام عن طريقهم؛ وسرعان ما بات بعيداً بما فيه الكفاية حتى استعاد «الصوت العميق» شكل الطائر مجدداً. ثم طار على هيئة صقر ليلي نحو كوخ الساحر، وزعق الزعقة التي أخبرها عنها.

سمعه الشيخ ونظر إلى الخارج. دنا «الصوت العميق» منه ووضع القلنسوة على رأسه؛ ثم غير نفسه إلى إنسان وحمل

Twitter: @ketab_n

الهراوة الحربية التي وضعها الساحر أمام الكوخ، وبضربة قوية واحدة ثبّت القلنسوة على رأسه بيد أنه أوقع الشيخ غائباً عن الوعي. وكم كانت مفاجأة «الصوت العميق» حين أفاق ولم ير الساحر الهرم، بل محارباً شاباً قال له: «شكراً يا صديقي، على البسالة واللطافة اللتين ساعدتني بهما على استعادة شبابي وقوتي».

ثم رجا «الصوت العميق» البقاء في كوخه كضيف. تصيدا معاً أياماً عدة وسرعان ما صارا صديقين. أخيراً رغب «الصوت العميق» في العودة إلى شقيقيه. فقدّم الساحر الشاب الهدايا له، حبال جرّ «البوفالو» وجلد الظباء البيضاء كالثلج، وخيوط «الوامبام» وأحزمتها، بقدر ما يمكنه حمله معه، بقدر ما يكفي لجعله سعيداً أينما عاش.

خلال فترة بقائه لم يأت أيّ منهما على ذكر «البجعة الحمراء». في هذا اليوم بينما وقفا يدخنان غليون الوداع، قال الشاب لـ «الصوت العميق»: «يا أخي أنت تعرف بأمر الجائزة التي يفوز بها ذاك الذي يعيد لي قلنسوتي. لقد منحتك كنوزاً تكفيك طوال حياتك. الآن أمنحك الهدية الأغلى على الإطلاق».

وعندئذ ظهرت «البجعة الحمراء».

Twitter: @ketab_n

قال له الساحر: «خذها، إنها أختي، فلتكن زوجة لك».

فعاد «الصوت العميق» و«البجعة الحمراء» إلى البيت عبر الطريق التي جاء منها، متوقفاً عند كوخي الساحرين الهرمين لكي يأخذ معه زوجتي شقيقيه. كانت «البجعة الحمراء» تفوقهما بكثير رقة وجمالاً، وقد اشتهرت بناتها وبنات بناتها بأنهن أجمل نساء القبيلة.

Twitter: @ketab_n

# الصخور المنحنية

## حكاية عن شلالات نياغارا

كانت «الصفصافة المائلة» أجمل الفتيات في قبيلة اشتهرت بجمال نسائها. كثر تقدّموا لخطبتها لكنها رفضتهم جميعاً؛ لأنها تحبّ محارباً شاباً من قوم بعيدين، وكانت تشعر أنه سيعود ذات يوم لكي يطرح ظباء أحمر أمام قدميها، أمارة على أنه راغب في الزواج منها.

كان من بين خطّابها رجل هرم شنيع هو زعيم قبيلة بالغ الثراء. كان وجهه مليئاً بالتجاعيد وشعره رمادياً مثل فراء حيوان الغرير[1]. وكان فظاً أيضاً، ذلك أنه دأب على ابتداع اختبارات فظيعة يسوم بها شبان قبيلته أشدّ أنواع العذاب لكي يستحقوا أن يكونوا من المحاربين. لكن الزعيم الذي سمّي عن حق «غليظ القلب»، أعلن أنه يريد الزواج من «الصفصافة المائلة»، وبما أنه كان قوياً ذا سلطان، لم يجرؤ والداها على رفضه رغم رجاء ابنتهما لهما أشدّ الرجاء.

(1) Badger: حيوان قصير القوائم يحفر مسكنه في الأرض (م).

Twitter: @ketab_n

في الليلة التي سبقت اليوم المحدّد لزواجها ذهبت إلى الغابة وارتمت أرضاً وجعلت تنشج نشيجاً مرّاً كأن قلبها سينفطر. وظلت الليل بطوله مضطجعة هناك تصغي إلى هدير شلال نياغارا العظيم، الذي لم يكن يبعد عن القرية سوى مسير امرأة[1]. أخيراً ألهمها الشلال وسيلة ناجعة للفرار.

في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ الجميع، عادت إلى كوخ أبيها، وأخذت قاربه وجرته إلى ضفة النهر. ثم غاصت به في المياه وجعلته يمشي مع التيار نحو الشلال. سرعان ما بلغت منحدر النهر، حيث تأرجح قاربها كغصن ذابل بين الأمواج العملاقة، لكنها مضت قدماً، ووصلت أخيراً إلى حافة الشلال العظيم.

لبرهة فحسب رأت المياه المتلألئة الخضراء ثم شعرت بنفسها تُرفع على أجنحة بيضاء عملاقة حملتها فوق الصخور. ثم انشقت المياه فعبرت الفتاة إلى داخل كهف مظلم وراء قوس قزح.

كان روح «المطر والسحاب» قد جاء لإنقاذها وأخذها إلى كوخه، وكان شيخاً ضئيلاً ذا وجه أبيض وشعر ولحية من السديم الأبيض الناعم مثل ذاك الذي يرتفع ليل نهار من أسفل

(1) دلالة على قصر المسافة، فالنسوة بحسب هذا التصور يبقين في القرية بينما يمضي الرجال بعيداً للصيد (م).

Twitter: @ketab_n

الشلالات. كان باب كوخه أمواج نياغارا الخضراء، أما الجدران فمن الصخر الرمادي المرصّع بالبراعم البيضاء.

أعطاها «المطر والسحاب» دثاراً دافئاً وأجلسها فوق كومة من جلد «القاقم» بجوار النار السحرية. تلك كانت النار التي تجري تحت الشلال وترمي شعلاتها الصفراء الخضراء عبر المياه فتشكّل قوس قزح.

جلب لها الأسماك لتأكل والحلوى الشهية المصنوعة من الطحالب التي لا يسع إلا أرواح الماء العثور عليها أو تحضيرها.

حين استراحت أخبرها بأنه يعرف قصتها وأنه مستعد لاستضافتها عنده حتى يموت الرجل الهرم الذي تقدّم لخطبتها. ثم أضاف: «هنالك حيّة كبيرة تعيش تحت قريتكم وهي تسمّم النبع الذي يجلب منه غليظ القلب المياه التي يستعملها، وعما قريب سيموت».

شعرت «الصفصافة المائلة» بالامتنان، وقالت له إنها مستعدة للبقاء بكل سرور طوال حياتها في مثل هذا المسكن الرائع برفقة مثل هذه الروح الرقيقة.

ابتسم «المطر والسحاب»؛ لكنه كان يعلم أن قلب فتاة يافعة مثلها سيعيدها إلى بيتها حين تشعر بأن العودة باتت آمنة. لم يكن

Twitter: @ketab_n

يحتاج إلى دليل أفضل على هذا من الأسئلة التي راحت تطرحها حول الحيّة التي تسبّبت بتفشي الكثير من الأمراض بين قومها.

أخبرها بأن هذه الحيّة تعيش هناك منذ سنوات. وإنها حين تذوقت ذات مرة الدم البشري لم تعد تشبع منه. فزحفت تحت القرية وبخّت سماً أسود على الينابيع التي يجرّ منها الناس الماء. حين يموت أي شخص تخطفه الحيّة ليلاً وتمتص دمه. وهذا يجعلها تواقة للمزيد. وحين يحدث موت أحدهم يتبعه آخر حتى تشبع الأفعى وتنام لبعض الوقت.

ثم قال لها: «بعد رجوعك عليك أن تقنعي قومك بالانتقال من مخيّمهم. اطلبي منهم الانتقال قريباً مني، وإذا ما تجرّأت الأفعى على اللحاق بهم فسأدافع عنهم».

بقيت «الصفصافة المائلة» أربعة أشهر مع «السحاب والمطر»، الذي علّمها الكثير من فنون السحر، وعرّفها على الأعشاب الشافية.

وذات يوم عاد من الصيد وقال لها: «غليظ القلب قد مات. الليلة سأنشئ جسراً من أسفل المياه عبر الشلالات إلى الهضاب العالية. عليك أن تتسلقيه بلا خوف، لأنني سأمسك به بقوة حتى تصلي إلى اليابسة».

Twitter: @ketab_n

حين أشرق القمر وأنار النهر كله، جعل «السحاب والمطر» ريحاً رقيقة ترفع المياه حتى شكّلت قوساً أبيض عظيماً يمتدّ من كهفه إلى الهضاب العالية. قاد الصفصافة المائلة إلى بداية هذا الجسر الضبابي وساعدها على تسلقه حتى اطمئن إلى سلامتها ومن تمكنها من السير بثبات.

حين وصلت إلى القرية قابلها السكان بالعناق والترحيب، ولم يكن منهم من هو آسف لأنها لم تتزوج «غليظ القلب». أخبرتهم قصتها مع الروح الطيبة «المطر والسحاب»، وكيف لاذت في مسكنه الرائع وكم عاملها بالحسنى، والأشياء الكثيرة التي علّمها إياها.

في البداية لم تعجبهم كثيراً فكرة أن ينقلوا قريتهم، لأنهم كانوا يعيشون في أرض غنية بالطرائد، أما عند الشلال فليس سوى الأرواح يمكنها صيد الأسماك. لكن حين أصيب رجال أشدّاء بالمرض وقضى بعض أطفال الزعيم، فكّوا أعمدة خيمهم وسعوا إلى حماية الروح الطيبة.

عاشوا طويلاً بصحة وسلام؛ لكن بعد أقمار عدة اكتشفت الحية مخيّمهم الجديد وشقّت طريقها إليه.

Twitter: @ketab_n

سرعان ما أدرك «السحاب والمطر» وصولها، وحنق أشدّ الحنق لأنها تجرّأت على الاقتراب من مسكنه. فأخذ حفنة من النيران السحرية مزجها بقصف الرعد ثم رمى بها الوحش المفترس. وقد شلتها الصاعقة الأولى، وجرحتها الثانية بشدّة، أما الثالثة فأزهقت روحها.

طلب منهم «السحاب والمطر» أن يجروا بدن الحيّة إلى منحدر النهر وأن يرموه في المياه. واحتاج ذلك إلى قوة جميع نساء القبيلة، لأن الحية كانت أطول من رحلة عشرين سهماً. وحين رميت في المياه بدا كأن جبلاً وقع على الموج وانجرف ببطء إلى حافة الشلال العظيم. وهناك علقت الحية بين الصخور فاستحال تحريرها إلا أنها التفت على الصخر كأنما اضطجعت لتنام. كان وزنها هائلاً إلى حدّ أنها لوت الصخور، وظلت كذلك شبيهة بالقوس إلى يومنا هذا.

عندما جاء قمر الزهور[1] جاء معه المحارب الشاب الذي تهواه «الصفصافة المائلة» ورمى ظبياً أحمر عند قدميها. فتزوجا وعاشا بسعادة لبقية أيامهما.

(1) فصل الربيع (م).

Twitter: @ketab_n

# الصقر الأبيض الكسول

كان «الصقر الأبيض» معروفاً بأنه أكسل فتيان القبيلة. فكان أبوه يضطر إلى إلقاء شباك الصيد – حتى في أكثر أيام الشتاء برداً –بمفرده؛ وذلك بسبب رفض «الصقر الأبيض» مساعدته سواء في حمل الشباك أم في إزالة الجليد. كما كان يرفض الصيد بأشكاله كافة، ومشاركة الفتيان ألعابهم، وخدمة والديه، حتى لحق العار باسمه.

وقد حزن أمه وأبوه بشدة على ما آل إليه حاله، لأنهما كانا كادحين متقشّفين، وما كانا مثل كثر في القبيلة ممن يعودون من الصيد للاحتفال والتبطّل؛ وهكذا بنيا كوخاً في الغابة خزّنا فيه مؤونة للمستقبل. وأخيراً عزما أمرهما على أن يفعلا شيئاً ما عله يخلّص «الصقر الأبيض» من كسله. لذا ذات ليلة حين رفض إحضار الماء لهما، قال له والده: «آه يا بني، إن من يخاف الذهاب إلى النهر في الظلام لن يتمكّن البتة من قتل الرأس الأحمر».

Twitter: @ketab_n

كان طموح كل فتى هندي أن يقتل «الرأس الأحمر». ورغم أن والديه لم يكونا على علم بالأمر، فلطالما آمن «الصقر الأبيض» أنه سينجح في ذلك، وغالباً ما وضع شتى الخطط التي سيفعل بها ذلك، لأنه كان قوياً على الرغم من كسله.

لم يجب على كلام أبيه، بل أوى من فوره إلى النوم. وفي صباح اليوم التالي طلب من أمه أن تصنع له خفّين جديدين من جلد الظباء، بينما نحت هو أربعة سهام وضعها في جعبة قديمة وتركها قرب أخفافه لكي يأخذها معه في الصباح.

نهض قبل الفجر ومن دون أن يوقظ والديه انتعل الخفين وحمل قوسه وجعبته وانطلق مصمماً على ألا يرجع قبل قتل «الرأس الأحمر». لم يكن يعلم أيّ طريق يسلك، فما إن بزغ نور النهار حتى أطلق سهماً في الهواء وتبع مجراه.

سار طوال اليوم. ومع حلول الظلام تعب وجاع، لأنه لم يجلب معه أي طعام ولم يجد سوى بعض الجوز في الغابة. ولمفاجأته رأى في أثناء مسيره ظبياً سميناً مقتولاً بسهم. وكان ذلك السهم الذي رماه في الصباح. ولم يخرجه، لكنه اقتطع من اللحم قدر ما يحتاج إليه وترك البقية لذئاب البراري.

Twitter: @ketab_n

نام في شجرة مجوّفة في تلك الليلة. وباكراً في صباح اليوم التالي أطلق سهماً آخر في الهواء لكي يستدلّ على الطريق، وفي الليل عثر على ظبي آخر مصاب بسهم.

وتكرر ذلك أربع مرات طوال الأيام الأربعة؛ لكن بما إنه لم يسترجع أياً من سهامه، فقد نفدت جميعها في اليوم الخامس، ووجد نفسه إذن بلا طعام. وسرعان ما صار يتضوّر جوعاً، لأنه منذ خرج من الغابة لم يجد لا الجوز ولا التوت البرّي في البراري.

اضطجع أرضاً ظاناً أنه سيموت هناك كما في أي مكان آخر، فقد كان يعاني ألماً عظيماً من شدّة الجوع. لم يمض وقت طويل حتى سمع صوتاً عميقاً مكتوماً شعر أن مصدره تحت الأرض.

نهض ونظر حوله فرأى مجازاً واسعاً تسير عليه امرأة عجوز ضاربة الأرض بعصاها مع كل خطوة تخطوها.

فاقترب منها وقد أخذ الرعب منه كل مأخذ، إذ اكتشف أنها ليست إلا الساحرة التي تعرف في البلاد برمتها بأنها «المرأة الضئيلة صانعة الحروب».

كانت ترتدي رداء نسج من جماجم النسوة. وكانت عصاها الغليظة المصنوعة من خشب الجوز مزينة بحبل علقت عليه

Twitter: @ketab_n

حوافر شتى أنواع الطيور ومناقيرها. ومع كل ضربة لعصاها تهتز وتصدر كل واحدة منها صوتها الخاص، وذلك الصوت المتنافر يبث الرعب في القلوب.

تبعها «الصقر الأبيض» زاحفاً في العشب الطويل، حتى رأى كوخها الذي يقع على ضفة بحيرة. دخلت إلى الكوخ، وخلعت رداءها وهزته مرات عدة، ومع كلّ هزة أصدرت الجماجم ضحكاً عالياً هو إلى الزعيق أقرب، وانضمّت إليه الساحرة العجوز.

سرعان ما خرجت من الكوخ، ومن دون أن يبدو أنها تراه، اتجهت مباشرة إلى «الصقر الأبيض» وقالت له إنها تعرف كل شيء عن عزمه على قتل «الرأس الأحمر»، وإنها ستساعده. قالت: «شبان كثر فكروا في قتله، غير أنك الوحيد الذي همّ بفعل ذلك».

أصرّت على أن يبيت ليلته في كوخها، فدخل وإن كان يعلم يقيناً أنه لن يتمكّن من النوم في مثل هذا المكان.

طلبت منه أن يضطجع، وأخرجت مشطاً، وبدأت تمشّط شعره، الذي بغضون دقائق أصبح طويلاً لماعاً كشعر امرأة.

Twitter: @ketab_n

فربطته بعصبة سحرية، وأعطته رداء نسائياً من الجلد الناعم الفاخر وعقداً ودبوساً فضيين، والكثير من عقود «الوامبام». ثم طلت وجهه بالأحمر والأصفر، من دون أن تنسى أن تضع بعض مسحوق الحب. أخيراً أحضرت زبدية فضية له ووضعت في حزامه نصلة من نبتة السيف[1] المعطّرة.

ثم أخبرته أن «الرأس الأحمر» يعيش في كوخ على جزيرة تقع وسط البحيرة. وأنه في الغد عليه أن يخوض في الماء ويبدأ بملء الزبدية والشرب من الماء. عندئذ سيراه الهنود من جماعة «الرأس الأحمر»، وسيحسبونه امرأة وسيقتربون منه بمراكبهم وسيرغب كلّ واحد منهم بجعلها زوجته.

ويفترض به أن يردّ عليهم: «لا، لن أتزوج إلا الرأس الأحمر، وعليه أن يحضر ويأخذني بقاربه، لأنني قطعت مسافة طويلة لكي أصبح زوجته».

حين يتبلغ «الرأس الأحمر» بذلك سيأتي بقاربه ويأخذ «الصقر الأبيض» إلى جزيرته. وقد حمّلته الساحرة بالهدايا التي سيقدّمها له في الزفاف، حيث عليه أن يتحيّن الفرصة لكي يقتله عبر جزّ عنقه بنصلة نبتة السيف المعطّرة.

(1) Sword Grass: أي نوع من النباتات القاسية ذات الوريقات الجارحة (م).

Twitter: @ketab_n

نهض الصقر الأبيض في صبيحة اليوم التالي، وارتدى الزي النسائي الذي أعطته له الساحرة، وذهب إلى البحيرة وبدأ بشرب الماء من الزبدية. وسرعان ما اقتربت قوارب عدة منه وتزاحم الرجال على عرض الزواج عليه.

تصرف «الصقر الأبيض» مثلما طلبت منه الساحرة. فأجاب على كل دعوات الرجال: «لقد قطعت مسافة طويلة لكي أرى الرأس الأحمر، الذي أزمع الزواج منه. فإذا كان يريدني فليأت إليّ بقاربه لكي يحملني إلى كوخه».

نُقلت الرسالة إلى «الرأس الأحمر» الذي جاء فوراً على قاربه. وحين اقترب القارب من الضفة رأى «الصقر الأبيض» أن هيكله مصنوع من الأفاعي المجلجلة، التي مدّت رؤوسها وجعلت تفحّ في أثناء صعوده إلى القارب. أمر «الرأس الأحمر» الأفاعي بالهدوء، فانصاعت لأوامره مثلما تفعل الكلاب عندما يأمرها سيّدها.

حين وصلا إلى البرّ ذهب به «الرأس الأحمر» مباشرة إلى كوخه وتمّ الزفاف. ثم أقيمت وليمة، وقُدّمت الهدايا وراح «الصقر الأبيض» يتحيّن الفرصة.

Twitter: @ketab_n

بعد قليل قالت أم «الرأس الأحمر» التي كانت تراقب العروس من كثب، لزوجها: «هذه ليست امرأة التي تزوجها ابننا؛ ليس من امرأة تحدّق بهذه الطريقة».

غضب زوجها بشدة من كلامها هذا؛ أما «الصقر الأبيض» الذي سمع المحادثة فقد قفز فجأة قائلاً: «لقد تعرضت للإهانة، ومن أهل زوجي. لا يمكنني العيش هنا. سأعود فوراً إلى قومي»، وركض خارجاً من الكوخ يتبعه الضيوف و«الرأس الأحمر» الذي طلب منهم أن يتركوه وشأنه.

ذهب الصقر الأبيض إلى الشاطئ وزعم أنه متجه إلى القارب، لكن رجاه «الرأس الأحمر» لكي يتريّث قليلاً على الأقل. استدار وجلس، وعندئذ ارتمى «الرأس الأحمر» عند قدمي زوجته ووضع رأسه في حجرها.

لم يُضع «الصقر الأبيض» لحظة واستل النصلة وبتر رأسه بضربة واحدة، ثم غاص في الماء وعبر البحيرة حاملاً الرأس بيده.

بالكاد وصل إلى الشاطئ حين رأى أتباع «الرأس الأحمر» يأتون حاملين المشاعل بحثاً عنه وعن زوجته. وسمع صراخهم حين وجدوا الجسد من دون الرأس، وسارع بالتالي إلى كوخ الساحرة، حيث ليس من المرجح أن يتبعوه.

Twitter: @ketab_n

استقبلته الساحرة بسرور عظيم. وطالبته بقطعة صغيرة من الجمجمة، سامحة له بأن يأخذ البقية إلى الديار معه.

كان متشوقاً للعودة، فأعطته طائر حجل لكي يعطيه إلى «روح الأرض» في حال قابله في الطريق.

بينما يمضي في القفار سمع هديراً عظيماً، وانشقت الأرض وانفتحت أمامه. فرمى الحجل في الشق فانغلقت الأرض فوراً فمرّ بسلام.

حين وصل إلى داره اكتشف أن والديه صاما حزناً عليه على اعتبار أنه مات، ذلك أنه مضت سنة على اختفائه. وقد جاء إليهما شبان كثيرون وقال كل واحد منهم لهما: «أنا ابنكما» حتى إنه حين عاد «الصقر الأبيض» لم ينظرا حتى إليه.

لكنه ارتمى على أقدامهما وأخبرهما أنه قتل «الرأس الأحمر». فلم يعيراه اهتماماً، أما الشبان الذين كرر لهم القصة فضحكوا في وجهه.

خرج من المخيّم وعاد وأحضر الرأس. فابتهج والداه عندئذ،

Twitter: @ketab_n

إذ عرفا أنه سينضم فوراً إلى جماعة المحاربين بما إنه خلّصهم من عدوّ رهيب كهذا. بينما تساءلوا جميعاً كيف أن شخصاً معروفاً بشدة كسله أصبح باسلاً إلى هذا الحدّ، روى لهم لماذا تصرّف على هذا النحو قبل مغادرته القرية. فحقيقة الأمر أنه كان عظيم القوة إلى درجة أنه كان يخشى أن يحطّم كلّ ما يلمسه، فلم يكن يجرؤ على ذلك. وأنه حين كان يحمل شباك الصيد كانت تتفتت في مواضع عدة. أما الآن وقد صار رجلاً فإن قوته ستكون مفيدة له ولقبيلته. يمكنه أن ينظّف الغابة من الأشجار المتهاوية، ويحمل بعضها ويرميه في النهر لكي يستطيع أبناء قبيلته العبور بأمان بين ضفتيه. ومنذ ذلك الوقت لم يعد اسمه «الصقر الأبيض الكسول»، بل «المحارب الجبار».

Twitter: @ketab_n

# الريشة السحرية

## ١

في أعماق الغابة في أرض داكوتا كان ثمة كوخ يبعد فراسخ كثيرة عن أي كوخ آخر. وكان الجميع يفترض أن الشيخ الموغل في السنّ الذي يعيش فيه قد مات منذ زمن؛ لكنه كان يختبئ من أجل أحفاده الذين أحضرتهم أمهم إليه هرباً من العمالقة.

كان قوم داكوتا شجعاناً جبارين في ما مضى. وكانوا يفتخرون بسرعتهم في العدو. وقد شاع بين الأقوام منذ أجيال عدة أن زعيماً عظيماً سيظهر في القبيلة، وسيهزم كل أعدائها، بمن فيهم العمالقة الذين استمدّوا قوتهم من التهام أولئك الذين يأسرونهم في المعارك ويشربون دماءهم. وهذا الزعيم العظيم سيكون واضعاً ريشة بيضاء على رأسه وسيُعرف بهذا الاسم.

كان العمالقة يصدّقون القصة ويسعون إلى الحيلولة دون تحقّق النبوءة. فقالوا للداكوتيين: «فلنتسابق. فإذا فزتم تأخذون صبياننا وبناتنا وتفعلون بهم ما شئتم، وإذا فزنا نحن نأخذ أولادكم».

Twitter: @ketab_n

هزّ بعض حكماء الهنود رؤوسهم وقالوا: «افترضوا أن العمالقة فازوا فسيقتلون أولادنا ويقدّمونهم على موائدهم». لكن الشبان أجابوا: «تباً، من يستطيع أن يسبق الداكوتيين؟ سنعود من السباق مع أطفال العمالقة الذين سيصبحون عبيداً لنا». فوافقت القبيلة على الرهان وسابقوا العمالقة.

كان من المتوقع أن يتصرف العمالقة بطريقة منصفة. إلا أنهم وضعوا الشراك على الطريق، وغطوها بأوراق الشجر والعشب، مما تسبّب بتعثر المتسابقين وخسارتهم.

فاضطر قوم داكوتا بالتالي إلى تسليم أطفالهم إلى العمالقة، لكن حين قاموا بالعدّ اكتشفوا أن ثمة طفلاً ناقصاً، فهدروا غاضبين وأجبروا القبيلة برمتها على البحث عنه، لكنهم لم يجدوا له أثراً. ثم قتل العمالقة الأب وأكلوا لحمه، متوعّدين ومتهدّدين مع كل قضمة.

لم يكن هذا سوى الطفل الذي كان كوخه في الغابة. حين كان يافعاً صنع له جده قوساً صغيراً وبعض السهام الخفيفة الناعمة وعلّمه الرماية.

Twitter: @ketab_n

وفي المرة الأولى التي خرج فيها من الكوخ أحضر معه أرنباً؛ وفي المرة الثانية سنجاباً، كما اصطاد ظبياً كبيراً قبل أن يصبح كبيراً لكي يتمكّن من جره معه إلى البيت.

وذات يوم حين كان في نحو الرابعة عشرة، سمع صوتاً يناديه وهو يعبر الغابة الكثيفة:

«اقترب من هنا، أنت يا صاحب الريشة البيضاء. صحيح أنك لا تضعها بعد، لكنك تستحقها».

نظر حوله، ولم يرَ أحداً في البداية. أخيراً لمح رأس إنسان هرم بين الأشجار. وحين اقترب منه اكتشف أن جسده من القلب نزولاً كان من الخشب وكان مثبتاً بالأرض. فكّر أنه لابدّ من أن صياداً ما قد تعثر بجذل شجرة فأمسكت به سريعاً؛ لكنه سرعان ما لاحظ جذور شجرة سنديان قديمة يعرفها جيداً. كان رأسها قد ابيضّ بفعل صاعقة ضربتها، وقد اسودّت أغصانها المنخفضة إلى حدّ أن الطيور لم تبن أعشاشها عليها، وقلة منها كانت تحطّ عليها.

لم يكن الفتى يعرف شيئاً عن العالم سوى ما علّمه إياه جدّه. وذات مرة وجد بعض أعمدة الأكواخ على طرف الغابة وكومة

Twitter: @ketab_n

من الرماد مثل تلك التي حول كوخه، فعلم أن هناك أشخاصاً آخرين. لم يخبره أحد لماذا يعيش مع رجل طاعن في السنّ في مكان ناء إلى هذا الحدّ، ولم يخبره أحد عن والده، لكن آن أوان معرفته بهذه الأمور.

طلب منه الرأس أن يقترب منه: «اذهب إلى البيت أيها الريشة البيضاء، ولتأو إلى النوم. وستبصر مناماً وحين تصحو ستجد غليوناً، وكيساً من التبغ، وريشة بيضاء طويلة بجانبك. ضع الريشة على رأسك، وبينما تنفث الدخان سترى الغيمة التي ارتفعت من غليونك وقد خرجت من باب البيت كسرب من الحمام». ثم أخبره الصوت من يكون، وعن العمالقة الذين لم يكفوا قطّ عن البحث عنه. وأنه ليس عليه أن ينتظرهم أكثر من ذلك، بل أن يذهب إليهم بجرأة وأن يتحدّاهم في سباق الجري. قال الصوت: «هاك، هذه نبتة مسحورة عليك أن تضرب بها رأس كل من يتسابق معك».

حمل «الريشة البيضاء»، مثلما صار اسمه من الآن فصاعداً، عود النبتة، وذهب إلى البيت سريعاً وفعل ما أمر به. سمع الصوت، فاستيقظ ورأى كيس التبغ، والغليون والريشة البيضاء. وضع الأخيرة على رأسه وحشا الغليون وجلس يدخّن.

Twitter: @ketab_n

ذهل جده الذي كان في العمل غير بعيد عن الكوخ حين رأى سرب الحمام يحلق فوق رأسه، وفوجئ أكثر حين رأى أنه يخرج من كوخه بالذات. وحين دخل ورأى الفتى يضع الريشة البيضاء علم معنى كل هذا واغتمّ غماً شديداً، لأنه كان يحبّ الفتى كثيراً ولا يحتمل فكرة أنه يمكن أن يخسره.

في صباح اليوم التالي ذهب «الريشة البيضاء» بحثاً عن العمالقة. اجتاز الغابة، ثم خرج إلى القفار وعبر غابات أخرى وقفاراً أخرى، حتى رأى أخيراً عامود كوخ طويلاً في وسط الغابة. فتقدّم من الكوخ بشجاعة، معتزماً مفاجأة العمالقة، بيد أنهم كانوا يتوقعون مجيئه، لأن الأرواح الصغيرة التي تنقل الأخبار سمعت الصوت يتكلّم إليه وسارعت إلى إخبار أولئك الذين يهمهم الأمر أكثر من أي أحد آخر.

كان العمالقة ستة إخوة يعيشون معاً في كوخ قذر غير معتنى به. حين رأوا الفتى قادماً سخروا منه بين أنفسهم؛ لكن حين دخل إلى الكوخ ادّعوا أنهم سروا برؤيته وأطروا عليه، وأخبروه بأن شهرته كشاب شجاع قد بلغتهم.

كان «الريشة البيضاء» يعلم ما الذي يريدونه. فعرض عليهم السباق، ورغم أن هذا بالضبط ما ينوون فعله، فقد سخروا من

Twitter: @ketab_n

عرضه. وأخيراً قالوا له إنه إذا كان يريد ذلك فليجرّب أولاً مع أصغرهم وأضعفهم.

قضى السباق بأن يركضوا شرقاً حتى بلوغهم شجرة معينة قد عرّيت من لحائها، ثم يعودون إلى نقطة الانطلاق، حيث غرزت هراوة معدنية في الأرض. ومن يصل أولاً عليه أن يضرب رأس الآخر بها.

ركض «الريشة البيضاء» وأصغر العمالقة، وسرّ الأخيرون الذين كانوا يشاهدون حين رأوا أن أخاهم يتقدّم بصورة بطيئة على «الريشة البيضاء». حين اقترب من عدوه قام الفتى بضربه على رأسه بالنبتة المسحورة فخرّ صريعاً. ولم يدر بخلد أحد أن الأمر أكثر من حادث، ذلك أن النبتة لا يراها سوى حاملها.

بعد أن بتر «الريشة البيضاء» رأس العملاق، فكّر الإخوة بأنه من الأفضل لهم الابتعاد عنه، ورجوه أن يترك الرأس معهم لأنهم فكروا أنه بالسحر يمكنهم إعادته إلى الحياة، لكنه قال إن من حقه أخذه معه إلى بيت جده.

Twitter: @ketab_n

وفي صباح اليوم التالي عاد لمسابقة العملاق الثاني وهزمه بالطريقة نفسها؛ وفي الصباح الثالث هزم الثالث، وهكذا قتل الجميع ما عدا واحداً.

حين ذهب إلى كوخ العملاق في صبيحة اليوم السادس سمع صوت الشيخ من شجرة السنديان الذي ظهر له سابقاً. وقد جاء لكي ينذره. أخبره أن السادس يخاف مسابقته وأنه سيحاول أن يخدعه ويمارس السحر عليه. وأنه في أثناء سيره في الغابة سيلتقي امرأة حسناء، هي الأجمل في العالم، واتقاء لخطرها عليه أن يتمنى أن يصبح ظبياً وسيتحول إلى هذا الحيوان. وحتى عندئذ عليه الابتعاد عن دربها لأنها تتربّص به شراً.

لم يكن «الريشة البيضاء» قد ابتعد كثيراً عن الشجرة حين التقاها. لم يكن قد رأى امرأة من قبل، وكانت هذه المرأة رائعة الجمال فتمنّى فوراً أن يتحوّل ظبياً لأنه كان واثقاً من أن هذه المرأة ستسحره. غير أنه لم يبتعد عنها بل ظلّ قريباً منها، وراح يرفع رأسه من وقت لآخر لكي ينظر إليها.

اقتربت منه ووضعت يدها على رقبته ومسّدت كشحيه. وحين أشاحت نظرها عنه تنهّدت، وحين التفت ثانية إليها لامته لأنه بدّل نفسه من شاب طويل ووسيم إلى هذا الكائن الدميم.

Twitter: @ketab_n

«فقد سمعت عنك وجئت أقصدك من أرض بعيدة ورغم أن كثراً طلبوا يدي فقد أردت أن أكون زوجتك أنت».

رأى «الريشة البيضاء» دمعة تترقرق في عينيها، وقبل أن يشعر تمنى أن يعود رجلاً. وفي لحظة واحدة استعاد هيئته الطبيعية، وأحاطته المرأة بذراعيها وقبلته.

بعد قليل أقنعته بالملاطفة أن يضطجع أرضاً ويضع رأسه في حجرها. الحقيقة أن هذه الحسناء لم تكن إلا العملاق مقنعاً؛ وحين ألقى «الريشة البيضاء» رأسه في حجرها ربتت شعره وجبهته وبسحرها أنامته. ثم أخذت فأساً وكسرت ظهره. وحين انتهت غيرت نفسها إلى العملاق، وحوّلت «الريشة البيضاء» إلى كلب، وأمرته بأن يتبعها إلى الكوخ.

أخذ العملاق الريشة ووضعها على رأسه، لأنه كان يعلم أنها تنطوي على سحر؛ وتمنى أن تكرّمه القبيلة بوصفه المحارب العظيم الذي طال انتظاره.

Twitter: @ketab_n

# ٢

في قرية صغيرة لا تبعد مسير رحلة امرأة عن منزل العمالقة عاش زعيم يدعى «الجناح الأحمر». كان له ابنتان، «العرسة البيضاء»[1] و«حجر الكريستال»، كل واحدة منهما مشهورة بجمالها وغرورها، وقد عرفت «حجر الكريستال» بلطفها مع الجميع إلا عشاقها، الذين كانوا يأتون من كل حدب وصوب، وكانت مصدر غيرة دائمة لـ «العرسة البيضاء»، وهي الأكبر سناً. وقد طلب العملاق الأكبر خطبة «العرسة البيضاء»، لكنها كانت تخاف منه، فبقيت الأختان عازبتين.

حين وصلت أخبار سباق «الريشة البيضاء» مع العمالقة إلى القرية، قرّرت كل فتاة أنها ستفوز بقلب الشاب الشجاع زوجاً لها. أرادت «العرسة البيضاء» شخصاً يكون زعيماً عظيماً تخشاه جميع القبائل. أما «حجر الكريستال» فقد أغرمت به قبل أن تراه لأنها علمت أنه طيب القلب بقدر ما هو شجاع، وإلا لما

(1) Weasel: ابن عرس أو عرسة، الحيوان المعروف (م).

Twitter: @ketab_n

أعطيت الريشة البيضاء له. كل واحدة منهما احتفظت بأمنيتها سراً وذهبت إلى الغابة لكي تصوم هناك حتى تتحقّق أمنيتها.

حين سمعتا أن «الريشة البيضاء» في طريقه عبر الغابة، رتبت «العرسة البيضاء» كوخها وارتدت أجمل ملابسها، متأملة بذلك أن تجذب انتباهه. ولم تقم أختها بمثل هذا الاستعداد لأنها فكرت أن زعيماً بمثل هذه الشجاعة والحكمة لن يلاحظ بهرجة امرأة.

حين مرّ العملاق في الغابة خرجت «العرسة البيضاء» ودعته إلى كوخها، من دون أن تعلم أنه العملاق الذي تخشاه إلى هذا الحدّ.

أما «حجر الكريستال» فقد دعت الكلب إلى كوخها بعد أن منعته أختها من الدخول، وعاملته بلطف شديد، مثلما كانت تفعل دائماً مع الكائنات المسكينة. الحقيقة أنه رغم أن الكلب كان مسحوراً ولم يكن قادراً على تغيير شكله، فقد كان لديه من الوعي ما يجعله يعرف أفكار المرأة. فصار حبه لها يزداد أكثر فأكثر كل يوم، وراح يبحث عن طريقة ما يظهر لها ذلك.

ذات يوم حين كان العملاق يصطاد في القفار، خرج الكلب للصيد أيضاً؛ بيد أنه ركض إلى ضفة النهر. وغاص بحذر في الماء

Twitter: @ketab_n

وأخرج حجراً كبيراً تحوّل قندساً لحظة ملامسته الأرض. أخذه إلى حبيبته في البيت، التي أرته لأختها وعرضت عليها مشاركته معها. لكن «العرسة البيضاء» رفضته، وقالت لزوجها إن عليه أن يتبع الكلب ويرى من أين يأتي بمثل هذه القنادس السمينة.

ذهب العملاق واختبأ وراء شجرة، ورأى الكلب يخرج حجراً ويحوله إلى قندس. بعد أن عاد الحيوان إلى البيت خاض العملاق في الماء وأخرج حجراً، تحوّل أيضاً إلى قندس. فأوثقه بحزامه وأخذه إلى البيت ورماه على باب الكوخ.

بعد قليل من عودته إلى البيت قال لزوجته أن تذهب وتجلب الحزام، وحين فعلت ذلك لم يكن هناك قندس موثق به، بل مجرد حجر كبير مثل ذاك الذي أخرجه من الماء.

لم يذهب الكلب، الذي يعلم أنه مراقب، لجلب المزيد من القنادس؛ لكنه قصد في اليوم التالي الغابة حتى وصل إلى شجرة محترقة. كسر غصناً صغيراً منها، تحوّل إلى دبّ لحظة أمسكه حتى يأخذه إلى البيت. قام العملاق – الذي كان يراقبه – بكسر غصن هو الآخر، فحصل أيضاً على دب؛ لكن حين وصل إلى البيت وطلب من زوجته أن تحضره لم تجد سوى غصن أسود.

Twitter: @ketab_n

عندئذ غضبت «العرسة البيضاء» وهزئت من زوجها، وسألته ما إذا كانت هذه هي الطريقة نفسها التي قام بها بالأعمال العظيمة التي كانت السبب في شهرته. قالت: «يا للقرف! إنك جبان، مع أنك ضخم جداً».

في اليوم التالي بعد أن خرج العملاق، ذهبت إلى القرية لكي تخبر أباها «الجناح الأحمر» بمدى سوء معاملة زوجها لها وأنه لا يأتي بالطعام إلى البيت. سوى أنها قالت له أيضاً إن أختها التي أخذت الكلب إلى كوخها لديها دائماً الكثير لتأكله، وإنها هي من تحنو على زوجة صاحب الريشة البيضاء التي غالباً ما تبقى جائعة.

أصغى «الجناح الأحمر» إلى قصتها وعلم فوراً من أنه لابدّ من وجود سحر ما في المسألة. أرسل مجموعة من الشبان والشابات إلى كوخ «حجر الكريستال» ليروا ما إذا كانت قصة «العرسة البيضاء» صحيحة، وإذا كانت كذلك أن يحضروا ابنته الصغرى والكلب إلى كوخه.

في الأثناء فقد طلب الكلب من الفتاة أن تحممه على نحو ما يفعل الهنود. ذهبا إلى النهر حيث أشار إلى البقعة الذي ستبني فيها الكوخ.

Twitter: @ketab_n

فبنته من العشب وحزم الخشب، وبعد تسخين بعض الحجارة الكبيرة وضعتها على الأرض وتركت ما يكفي من الفسحة للكلب لكي يضطجع هناك فحسب. ثم سكبت المياه على الحجارة مما أنشأ بخاراً كثيفاً كاد يخنق الكلب الذي اضطجع طويلاً على الحجارة، ثم نهض وخرج مسرعاً وقفز إلى بركة من الماء متشكلة من النهر. فخرج شاباً طويلاً وسيماً إنما غير قادر على النطق.

ذهل الرسل الذين أرسلهم «الجناح الأحمر» حين وجدوا أمامهم رجلاً لا كلباً، لكنهم لم يجدوا مشقة في إقناعه و«حجر الكريستال» بمرافقتهم.

فوجئ «الجناح الأحمر» مثل رسله ودعا حكماء القبيلة لكي يشهدوا على ما سيجري، ولكي يشوروا عليه في أمر ابنتيه.

سرعان ما احتشدت القبيلة كلها وأيضاً الكثير من الغرباء. جاء العملاق أيضاً وأحضر معه الغليون السحري الذي مُنح لـ «الريشة البيضاء» في المنام. دخن ومرر الغليون على الهنود لكي يدخنوا، لكن لا شيء خرج من الغليون. فأشار لهم «الريشة البيضاء» بأنه يريده.

Twitter: @ketab_n

وطلب أيضاً ريشة بيضاء وضعها على رأسه، وما إن نفخ من الغليون أول نفخة حتى حلقت أسراب الحمام من الدخان.

قفز الرجال وقوفاً، مذهولين من مثل هذا السحر. عاد النطق إلى «الريشة البيضاء»، وجواباً عن أسئلة رجال القبيلة روى لهم حكايته.

أصغى «الجناح الأحمر» والمجلس ودخنوا بصمت لبعض الوقت. ثم أمر كبيرهم وأكثرهم حكمة العملاق بالمثول أمام «الريشة البيضاء» لكي يحوله إلى كلب. وقد فعل «الريشة البيضاء» ذلك عبر نثر رماد الغليون السحري على العملاق. واتفقوا بعدئذ على أن يحمل الشبان هراواتهم الحربية ويقودوا الحيوان إلى الغابة ويضربوه حتى الموت.

رغب «الريشة البيضاء» في مكافأة أصدقائه، فدعاهم إلى صيد الثيران الذي سيجري بعد أربعة أيام ومنعهم من إحضار أي سهام.

استعداداً لهم، قص جلد ثور إلى أجزاء نشرها في القفار.

Twitter: @ketab_n

وفي اليوم المحدد اكتشف المحاربون أن قطع الجلد هذه تحولت إلى قطيع كبير من الثيران التي قتلوا منها قدر ما يريدون، ذلك أن «الريشة البيضاء» سحر كل سهم لكي لا يفوت الهدف.

تبع ذلك وليمة ضخمة على شرف انتصار «الريشة البيضاء» على العمالقة وزواجه من «حجر الكريستال».

Twitter: @ketab_n

# فتاة النجمة

كان قوم «أوجيبواي» عظماء يحبّهم الجنّ. وكانت أرضهم موطن الكثير من الأرواح، وما داموا يعيشون على ضفاف البحيرات الكبرى فقد كانت الغابات في تلك النواحي مليئة دائماً بالجنّ. كان بعض الجن يقيم في الطحالب أسفل بعض الأشجار. وبعضهم الآخر يختبئ تحت الفطر ونبات «الغاريقون» السام. وقد دأب بعضهم على تغيير شكله إلى فراشات برّاقة الأجنحة أو حشرات أصغر ذات أجنحة لمّاعة. وكانوا يفعلون ذلك لكي يبقوا على مقربة من الأطفال الذين يحبونهم ويحبون اللعب معهم لأنهم يستطيعون رؤية بعضهم بعضاً.

لكن كانت هناك أيضاً أرواح شريرة في تلك الأرض. كانت تلك الأرواح تلوذ بالأرض، وتقرض جذور أجمل الأزهار وتتلفها. كما اعتادت أن تنفخ على الذرة فتفسدها، وتصيخ السمع كلما سمعت بشراً يتكلمون، وتنقل الأخبار إلى أولئك الذين يسيئهم هذا الكلام.

Twitter: @ketab_n

بسبب هؤلاء الجنّ الأشرار لابدّ من أن الهندي يبقى صامتاً في الغابات ولا يبوح بأسراره في المخيم حتى يتأكد من أن الأرواح نامت تحت لحاف الثلج الأبيض.

كان القوم يعتنون بالأرواح الصالحة. فيحمون الأزهار ويطأون بحذر حين يرون طحلباً أو فطراً في طريقهم. وما كانوا يزيلون الطحلب عن الأشجار، أو ينصبون الأفخاخ في أشعة الشمس، لأن عليها يهبط آلاف الجن من السماء. وحين ينتهي الصيد يجلسون على أبواب أكواخهم ويدخنون، وبينما يشاهدون الدوائر الزرقاء ترتفع وتتلاشى في عتمة المساء، يصغون إلى أصوات الجنّ والحشرات وهي تدندن آلاف الأصوات الصغيرة التي يأتي بها الليل دائماً.

ذات ليلة بينما يصغون رأوا ضوءاً يلمع فوق أعلى الأشجار. كانت نجمة أكثر إشعاعاً من كل النجمات الأخريات، وبدت قريبة جداً من الأرض. وحين اقتربوا من الشجرة اكتشفوا أنها عالقة بين الأغصان العالية.

اجتمع حكماء القبيلة لثلاث ليال حول النار، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى قرار بشأن النجمة الرائعة. أخيراً ذهب إليهم أحد المحاربين الشبان وأخبرهم بأنه رأى جليّة الأمر في المنام.

Twitter: @ketab_n

في أثناء نومه رفعت ريح الغرب ستائر كوخه وسقط عليه ضوء النجمة. فإذا به يرى فتاة حسناء تقف قربه. وتبسّمت له، وبينما ينظر عاجزاً عن النطق قالت له إن منزلها هو في النجمة وإنها بعد أن جالت الأرض لا تجد أرضاً أجمل من أرض الـ «أوجيبوي»، ذلك أن أزهارها الملونة وطيورها الغناء وأنهارها وبحيراتها الرائعة وجبالها المكسوة بالخضرة، قد سحرتها، فلم تعد ترغب في الترحال. فإذا ما رحبوا بها ستجعل مقامها بينهم، وطلبت منهم أن يختاروا مكاناً تستطيع الإقامة فيه.

سرّ المجلس كثيراً بذلك؛ بيد أنهم لم يتفقوا على أفضل مكان يمكنهم تقديمه للفتاة النجمة، فقرروا أن يطلبوا منها الاختيار بنفسها.

بحثت أولاً بين أزهار القفار. هناك وجدت خاتم الجنّ، حيث ترقص الأرواح الصغيرة في الليالي المقمرة. قالت لنفسها: «سأستريح هنا». لكن بينما تتأرجح إلى الأمام والوراء على سويقة زهرة جميلة، سمعت جلبة رهيبة ففرّت جزعة. جاء قطيع كبير من الثيران البرّية وكانت جلبتها عالية إلى حدّ أنها تسمع من مسافات بعيدة. لا يمكن لأي فتاة نجمة أن تختار مكاناً كهذا منزلاً لها.

Twitter: @ketab_n

بعد ذلك قصدت الوادي. فوجدته مبهجاً منعشاً حيث لامست الأعشاب الناعمة قدميها الرقيقتين، وكان يمكنها محادثة الأرواح التي تحبها، والتي تعيش في النجوم. غير أن الوادي كان سحيقاً وقد حجبت صخور الجبل الكبيرة عنها منظر قوم «أوجيبوي» الذي تحبه.

كادت تصاب باليأس، حين نظرت ذات يوم إلى حافة ورقة الزهرة البرية ورأت زهرة بيضاء ذات قلب ذهبي تشع على مياه البحيرة تحتها. بينما نظرت حرّك قاربٌ المياه وكان على متنه المحارب الذي أخبر شعبها بأمنيتها، ولامست يده القوية السمراء حافة الزهرة.

هتفت: «هذا هو منزلي»، وشبه محلقة من سفح الجبل شقت طريقها سريعاً إلى الزهرة وخبأت نفسها في براعمها. هناك يمكنها مشاهدة النجوم حين تنظر من قلب الجبل؛ هناك يمكنها محادثة أرواح النجوم، التي تستحم في مياه البحيرة الصافية؛ والأفضل من كل شيء هناك تستطيع رؤية القوم الذين تحبهم والذين لا تفارق قواربهم الماء.

Twitter: @ketab_n

# الأرنب الوحشي المحارب

ذات يوم كان أمير الأرانب الوحشية يلاعب أطفاله أمام جحره، حين شعر بالتعب فطوى أذنيه، وضمّ قدميه، وتمدّد أرضاً لكي ينام.

في الأثناء أشرقت الشمس وهبطت قريباً جداً من الأرض إلى درجة أنها أحرقت ظهره. شعر الأرنب بألم مبرح، وراح يفرك ظهره فإذا بفرائه ينتزع بقطع كبيرة، مما أفسد جماله. تملكه الغضب الشديد، فوقف وأعلن صارخاً أنه سيحارب الشمس؛ وعلى الرغم من نصح أصدقائه له مضى فوراً لكي يثأر لنفسه من الشمس.

كان الأرنب الوحشي يعيش في سهل مترامي الأطراف. وحين بلغ نهايته ارتقى هضبة عالية لكي يطلّ على البلاد. رأى في الأسفل على الطرف الآخر حقلاً من الريش الأخضر يتمايل مع ريح الغرب. لم يكن قد رأى الذرة من قبل، ولم يعرف ما هو هذا الريش.

Twitter: @ketab_n

هرع متشوقاً إلى المكان وأخذ ما يمكنه حمله معه من الذرة وخبأها وراء الصخور. ثم حفّ غصنين جافين معاً وأنشأ ناراً، شوى بها الذرة.

سرعان ما جاء صاحب الحقل وحين رأى الضرر الذي أحدثه الأرنب الوحشي استدعى محاربيه لمقاتلة اللص.

حفر الأرنب جحراً بجانب الصخرة، وحين رميت عليه السهام صدّها نافخاً بأنفاسه السحرية. هرع المحاربون للإمساك به، ومن شدّة سرعتهم تعثروا ببعضهم ولم يقبض الواحد منهم إلا على ذراع الآخر. ثم فكروا في الحفر لإخراجه من الجحر وبدأوا بالعمل حتى باتت الأميرة الشمس[1] في منتصف الطريق إلى دارها، لكن قبل أن يلمحوا الأرنب الوحشي كان قد فرّ عبر ممرّ سري تحت الأرض.

هرع إلى صخرة أعلى من تلك التي كانوا يحفرون تحتها، ثم قذف الجحر بكرته السحرية، مما أحدث صدعاً كبيراً في الأرض وقع فيه الزعيم وجميع أتباعه.

(1) في الأصل هو الأمير لكن لمّا كانت الشمس بالعربية مؤنثة فقد جعلناها الأميرة، والعكس بالنسبة إلى القمر (م).

Twitter: @ketab_n

في صباح اليوم التالي رأى الأرنب الوحشي رجلين ينحتان رؤوس سهام من الحجارة الحامية. راقبهما يسخنان الحجارة، وحين أصبحت حمراء صاح: «يا للسخف، ألا تعرفان أن الحجارة النارية لا تحرقني!».

نظر الرجلان إليه، وسأله أحدهما: «أأنت ساحر؟».

فأجابه الأرنب الوحشي: «لا، لكنني أفوقك رجولة أنت ومن معك. إنني مستعد للاستلقاء على الحجارة الملتهبة، إذا قبلتما بأن تحذوا حذوي».

وافق الرجلان، وبعد أن توهّجت الحجارة، استلقى الأرنب عليها، وقام الرجلان بضغطه عليها. غير أنه نفخ من أنفاسه السحرية هواء برّد الموضع الذي كان مستلقياً عليه فلم يصب بشيء من الحروق.

أما الرجلان اللذان لم يكن ثمة ما يحميهما فسرعان ما صارا يرجوانه الرحمة، لكن الأرنب الوحشي ألزمهما بوعدهما فقضى كلاهما. «هذه عاقبة من يتحدّى ساحراً»، قال الأرنب الوحشي وأكمل رحلته.

Twitter: @ketab_n

في اليوم التالي مرّ بهضبة عالية تعصف فيها رياح عاتية إلى درجة أن أسماها البشر الذين يعيشون في تلك الأرض «هضبة الأعاصير». كانت تشرف على وهد عميق تنبت فيه زهور عباد شمس طويلة كالأشجار ورؤوسها مثقلة بالبذور.

أخذ الأرنب حفنة ومن البذور وسلى نفسها برشقها في الهواء والتقاطها بفمه. بينما يفعل هذا سمع صوتاً وحين نظر رأى مجموعة من النسوة يخططن لقتله.

قلن: «لندعو الإعصار حتى يرميه بصخرة».

لم يقل الأرنب شيئاً بل مضى أمام أنظارهن وراح يتناول البذور باستمتاع كبير. نظرت النسوة إليه بلهفة، وأخيراً طلبن منه مشاركته هذه الأطايب، غير عالمات ما الذي يتناوله حقاً.

رمى حفنة من البذور في الهواء وحاولن بكل قوتهن التقاطها لكنهن أخفقن مرة بعد مرة، وكل مرة كن يقتربن أكثر من حافة الهضبة حتى وقعت الأقرب منهن إلى الجرف في الوهد، وكانت الأخريات قريبات جداً منها فوقعن خلفها، وكلهن ما عدا اثنتين تحطمن أشلاء، وتلك الاثنتان توعّدتا بالانتقام من الأرنب الوحشي.

Twitter: @ketab_n

التقاهما بعدها بفترة قصيرة تجمعان العليق البري، وقال لهما إنه سيعطيهما فرصة الانتقام منه: «يمكنكما نفخ شوك هذا العليق وأوراقه في عيني. سأدعكما تحاولان أولاً وإذا لم تفلحا في إعمائي فعليكما السماح لي بفعل الأمر نفسه معكما».

ألزمتاه بكلمته ورمتا حفنة من شوك العليق. لكن عبر النفخ الذي مارسه في تبريد الحجارة المتجمّرة تمكن من صدّها كلها عنه.

وثقت الامرأتان بأن أيديهما ستحميهما، لكن الأرنب الوحشي صوّب جيداً ومرّت الأشواك بين أصابعهما وأصابتهما بالعمى.

خاض الأرنب الوحشي مغامرة أخرى مع النساء. ففي أثناء مروره بمكان موحش رأى عدة نسوة يحبكن أجربة من القطن للمياه. وهؤلاء النسوة أيضاً تآمرن للقضاء عليه.

اقترب منهن بجرأة واقترح عليهن بأن يضعنه داخل أحد الأجربة. وبما أنه لا يستطيع الدخول إلى واحد مخاط فقد وضعنه داخل واحد غير منجز الخياطة بعد وقمن بخياطة عنق الجراب حوله، جاعلات العنق صغيراً جداً لكي لا يتمكّن من الفرار.

Twitter: @ketab_n

بينما كن يضحكن من سهولة الإمساك به فجّر الأرنب الوحشي الجراب وخرج منه دون أن تلحق به أي أذية.

ثم أقنعهن بالدخول إلى الأكياس وجعله يخيط الأعناق حولهن. عمل ببطء في البداية لكي يوهمهن أنه لا يجيد الحياكة، لكنه جعل الأعناق قوية وخاطها كلها.

ثم دحرج الأجربة أرضاً حتى لحقت بالنسوة رضوض وجراح أليمة. توعّدن بالانتقام منه، لكن حين رماهن بقوة أكبر وبدأت دماؤهن تسيل على الأرض رجونه أن يسمح لهن بالخروج.

ولم يقبل لكن بعد قليل حين ظن أنهن عانين بما فيه الكفاية ضرب كل جراب بكرته السحرية لكي يخلصهن من بؤسهن.

عنكبوتة كبيرة كانت تراقب ما جرى أزمعت أن تعاقبه بسبله نفسها. كان لدى العنكبوتة هراوة سحرية تسمّم كل ما تضربه من دون أن تحدث أي جرح. نادت العنكبوتة على الأرنب الوحشي وطلبت منه أن يضربها بالهراوة.

رفعها الأرنب وضربها بها على رأسها وظهرها، إلا أن العنكبوتة لم تصب بأي أذى. بدأ الأرنب يرتاب بالأمر، وقبل

Twitter: @ketab_n

أن يأتي دوره للتعرض للضرب بدّل هراوة العنكبوت بكرته السحرية وقتله بضربة واحدة.

هكذا مضى في طريقه، هازماً كل من يقف في وجهه أو يتآمر ضده، حتى وصل إلى حافة العالم. هناك رأى هضبة عالية فيها أشجار من كل الأحجام والأنواع. تسلّق شجرة القيقب وقال: «بم تفيدين أنت، في الابتهال؟».

هزّت الشجرة أوراقها باستياء عظيم وقالت: «أنا طعام الرأس العظيم. دم أطفالي حلو ومغذ، وهم يمنحونه للأقوام بلا مقابل».

ثم ذهب الأرنب إلى شجرة الصنوبرية وقال: «ما الفائدة منك؟».

أجابت الشجرة: «أنا... بي تلصق معاً أجزاء قوارب الأقوام. لولاي لما تمكنوا من الإبحار في الأنهار والبحيرات».

أما السدرة فأجابت عن السؤال بالقول: «أنا أمنح القوارب متانتها لكي تحتمل وزن المحاربين العظماء. لولاي لما أبحرت سوى النسوة والأطفال».

Twitter: @ketab_n

ثم اعترضت شجرة البتولا طريقه قائلة: «لولاي لما صنع البشر أي قوارب. إن لحائي يستخدم للكتابة بالصور التي يقوم بها الأقوام، لولاي، كيف كان سيستطيع الزعيم مخاطبة شقيقه الذي يعيش على ضفاف النهر البعيد؟».

أما شجرة التنوب فتفاخرت ببلسمها الذي لولاه لما استطاعت القوارب السير بانسياب على صفحة الماء.

قال الأرنب الوحشي: «يا للبؤس، كلكم تقولون إنه يستحيل صنع القوارب من دونكم. أما أنت يا شجرة الزيزفون فليس لديك أي دور في صنع القوارب، فبمَ أنت مفيدة؟».

أجابت: «أنا؟ أنا تصنع مني أسرة الأطفال. من دوني لما أمكن هدهدتهم إلى النوم حين يختفي الأحمر الرائع من السماء ويأتي الليل؟ كما أنكم تصنعون مني الأطباق والأكواب».

اعترضت البلوطة طريقه، وقبل أن يطرح السؤال، لامست رأسه بغصونها المنخفضة وقالت بصوت عميق: «أنا ملاذ المحاربين العظماء ومكان اجتماعهم. ومن أغصاني تصنع أحسن السهام التي تأتي بالطعام إلى الصياد وتحمل الموت لأعدائه».

Twitter: @ketab_n

وتنهّدت شجرة الدردار هامسة: «مني يصنع القوس الذي يسرّع تحليق السهم».

وأخفضت الصفصافة الحمراء رأسها وقالت: «لحائي يصنع منه غليون الهندي، أذرعي تناديه للوليمة. أغصاني لسلاله، ولحصره وأكواز مائه».

هكذا زعمت كل شجرة أنها مفيدة جداً إلى درجة أنه لا يمكن للإنسان العيش من دونها. أخيراً اقترب الأرنب الوحشي من شجرة صغيرة جداً، قد تلف الكثير من أوراقها. وسألها: «ما فائدتك أنت؟».

فأجابت: «لا فائدة مني إلا إذا استعملتني أنت».

فقال الأرنب الوحشي: «سنرى، سنرى».

ارتقى أعلى الجرف ورأى الشمس تشرق تواً. لمحته الشمس في اللحظة عينها، وكانت تعلم أنه أتى للانتقام، فتقهقرت سريعاً إلى كهفها.

بقيت هناك ثلاثة أيام وعانى العالم من البرد والظلمة. وأخيراً بلغت أصوات الناس المستائين مسامع الشمس فصارت مجبرة على الخروج.

Twitter: @ketab_n

كان الأرنب الوحشي قد حضّر سهامه وصوب العديد منها نحو الشمس، لكنها وقعت على مسافة أقصر. وحين صارت الشمس فوق رأسه مباشرة سحب سهماً سحرياً غمسه بدمعة سحرية طفرت من عينه. وبهذا صوّب جيداً. وأصاب السهم الشمس وحطمها إلى آلاف الشظايا. وأدت هذه الشظايا إلى إشعال العالم برمته. أحرقت الغابات والقفار والقرى وحقول الذرة والأرز والقرع والكروم والعنب والجوز.

هرع أطفال أمير الأرانب الوحشية إلى جحرهم، وقاد الأيل العظيم الكثير من الحيوانات إلى الحقل الفسيح في جبال روكي، الذي يحيط به خط مقدّس لا تستطيع النار اختراقه.

أحرقت النار الجرف على طرف العالم. بحث الأرنب عن ملجأ أولاً في إحدى الأشجار ثم في سواها، لكنها كلها كانت محطمة إلا تلك التي قالت له إنه عديم الفائدة. كانت صغيرة جداً فلا يمكنها حمايته تماماً. فاحترق ذيله وظهره وأقدامه وأطراف أذنيه، أي كل جزء منه ما عدا رأسه.

راح يتدحرج ويتدحرج على الأرض علّ هذا يخفّف من ألمه إلا أن الألم كان قوياً إلى حدّ أن عينيه انفجرتا، والمياه التي اندفعت منهما أطفأت النيران.

Twitter: @ketab_n

كانت الشمس قد هزمت وتمّ استدعاؤها أمام المجلس. وقد وجدها الحكماء مذنبة لفظاظتها وعدم اكتراثها بالبشر؛ فأجبرت على السفر على الطريق نفسه يوماً بعد يوم كل الزمن وأن تكون على مسافة ثابتة من الأرض لكي لا تستطيع أن تحرق الأشجار أو الحيوانات أو أن تترك البشر في البرد والظلمات.

Twitter: @ketab_n

# الرأس العظيم

قرّر «الذئب الوحيد» الانتقال مع زوجته وأولاده بعيداً عن قبيلته وأنشأ لنفسه مسكناً في الغابة. كان الرجل وزوجته عجوزين، وحين جاء المرض لم يكن لديهما القوة لصدّه، فماتا، تفصل بين واحدهما والآخر بضعة أقمار فقط. وكان الأولاد أصغر من أن يعيشوا وحدهم، فذهبوا إلى كوخ خالهم «النهر العميق»[1] الذي قدّم لهم الطعام والمأوى حتى بات الفتية الأكبر سناً قادرين على الصيد وتأمين طعام إخوتهم الأصغر سناً.

ذات صباح انطلق بعضهم في الصيد، كل واحد منهم سلك درباً مختلفاً عن الآخر. فاتجه الأكبر شمالاً لأنه كان أقدر على السفر مسافات بعيدة وعلى قتال الوحوش المفترسة التي تعيش في المنطقة.

هبط الليل، لمّاعاً بنجومه الكثيرة، لكنه لم يعد.

(1) في الأصل البحيرة العميقة (م).

Twitter: @ketab_n

في صباح اليوم التالي ذهب الأخ الثاني في الاتجاه نفسه، ظناً منه أنه قد يجد أثر أخيه الأكبر. ولم يعد هذا أيضاً. ثم ذهب الثالث بحثاً عن الاثنين، وهو أيضاً لم يعد.

هكذا تبع جميع الإخوة بعضهم بعضاً، حتى بقي أصغرهم «الظبي الصغير» وحده مع خاله. كان فتياً وواهناً جداً مما جعل أمله معدوماً في النجاح حيث أخفق إخوته فمنعه «النهر العميق» من الذهاب بمفرده خوفاً من أن تؤذيه الساحرة أو العملاق الذي على الأرجح قد أذى إخوته من قبله.

ذات يوم بينما كان «النهر العميق» و«الظبي الصغير» في الغابة سمعا صوت أنين عميق بدا يأتي من باطن الأرض. بحثا ووجدا رجلاً مغطى بالتراب عالقاً تحت جذع شجرة كبيرة.

قال «النهر العميق» لابن أخته: «بسرعة، اهرع إلى الكوخ وأت بزيت الدببة».

هرع «الظبي الصغير» إلى الكوخ وعاد بجرة الزيت، التي فرك بها خاله وجه الرجل حتى استعاد وعيه وبات قادراً على التكلم. كانت كلماته بالغة الغرابة، بما إنه لم يرَ أياً منهما من قبل.

Twitter: @ketab_n

قال شاخصاً نحو الفتى: «أنت الظبي الصغير. ولك تسعة أشقاء ذهبوا شمالاً للصيد ولم يعد أحد منهم».

بدأ الشيخ يرتاب بوجود سحر ما فسأل مرتجفاً: «من أنت؟».

قال الغريب: «اسمي القدم العفنة للرأس العظيم».

كان «النهر العميق» يعرف جيداً بأمر الرأس العظيم. كان رأساً هائلاً بلا جسد. وكانت له عينان ضخمتان مخيفتان، وشعر طويل أجعد مثل الدب «غريزلي»، وكان يقيم فوق صخرة الجرف العملاقة. سواء بان أم لم يبن، فإنه إذا لمح أي كائن حيّ يصرخ صرخة رهيبة: «إني أراك، إني أراك، وسوف تموت».

كان «النهر العميق» زعيماً شجاعاً وفكر بأنه ربما يستطيع أن يهزم الرأس العظيم، أو على الأقل أن يعرف مصير أولاد أخته، الذين شعر يقيناً بأنه قد قضى عليهم، والخطة التي خطرت له هي أن يكون لطيفاً مع أخ الرأس عله يعرف المزيد عنه.

فدعا «القدم المتعفنة» إلى كوخه، وقدّم له مقعداً مريحاً بجانب النار، وفرك أطرافه المتصلبة بزيت الدببة، وقدّم له الطعام الشهي.

Twitter: @ketab_n

حين شعر الضيف بالدفء والشبع، بدأ «النهر العميق» يسأله عن «الرأس العظيم» قائلاً: «أيمكنك أن تأتي به إلى هنا؟».

«لن يقبل المجيء بمجرد طلب ذلك منه، لكنني قد أغريه بذلك».

في اليوم التالي ذهب «القدم المتعفنة» بحثاً عن أخيه. وعد بأن يستعمل كل مهارته وسحره إذا استلزم الأمر، لكي يأتي به إلى الكوخ. قال للشيخ قبل أن ينطلق في رحلته: «جهّز بعض زنود خشب القيقب كطعام للرأس في حال جاء إلى هنا».

اقتلع شجرة جوز وصنع من جذورها سهاماً؛ ثم زحف بحذر حتى رأى صخرة الجرف تلوح أمامه. وخشية أن يرى استعمل سحره وتقمّص جسد خلد وطلب من الحيوان أن يحفر جحراً في الأرض لكي يختفي فيه.

سرعان ما سمع هدير الرأس «إني أراك، إني أراك، سوف تموت!».

نظر إلى الأعلى ورأى أن أخاه يراقب بومة، سقطت فوراً عن الشجرة، وتفتت لحمها وتجرّدت عظامها فوراً.

Twitter: @ketab_n

استلّ «القدم المتعفنة» سهماً وصوّب على أخيه. كان سهماً صغيراً حين انطلق، لكنه أخذ يكبر ويكبر وهو يقترب من الرأس، إلا أنه لم يصبه بل ارتد، وصار يصغر ويصغر حتى عاد إلى حجمه الطبيعي وعاد إلى الجعبة بجانب «القدم المتعفنة».

واثقاً من أن أخاه سيتبعه استدار وركض نحو كوخ «النهر العميق». وقد خبأه الأخدود الذي صنعه الخلد عن أنظار الرأس، الذي تبعه فوراً وهو يعصف هادراً.

سمعه «النهر العميق» يشق طريقه في الغابة، وزوّد نفسه «والظبي الصغير» بهراوتين حربيتين في حال هاجم الكوخ.

لحظة وصول «القدم المتعفنة» إلى الكوخ - وكان موشكاً على الخروج من بدن الخلد - حتى تعرّف الرأس أخاه، وسرّ كثيراً برؤيته إذ كان يحسبه ميتاً منذ زمن. ضحك عالياً حتى تحطّمت الغيوم وظهر قوس قزح فوق الأشجار.

حين سمع «النهر العميق» و«الوعل الصغير» صوته وقد تبدّل من غاضب إلى ضاحك، رميا هراوتيهما وأحضرا زنود أخشاب القيقب.

Twitter: @ketab_n

التهمها الرأس بنهم، وحين انتهى أخبرهما أنه عزم أمره على قتل ساحرة تعيش ناحية الشمال، وهي تقتل من البشر والحيوانات ضعف ما يقتله هو. قال: «أنا لا أقتل قطّ الشجاع أو البريء، أما هي فعديمة الرحمة وتستدرج الرجال إلى الموت بأغانيها العذبة. هذه الأغنيات تخدّر الصيادين مثلما الثلج الذي يجعلهم يتعثرون في الغابة».

ثم قال «النهر العميق»: اسمح لي بالمجيء معك، لأن الساحرة قتلت أبناء أختي التسعة، إخوة هذا الشاب».

قال الرأس: «لا، سآخذ الفتى، وسينتقم هو لموتهم».

سافرا ليلاً، وباكراً في الصباح وصلا إلى كوخ الساحرة. كان كهفاً مليئاً بعظام الرجال الموتى. كانت أصابعهم تتدلى من السقف، وجماجمهم مكومة فوق بعضها على فراشها، وقد شكّلت جماجمهم أطباقها وقدورها.

جلست تتأرجح على الكرسي، مغنية أغنية عذبة بصوت منخفض، نغمة تجعل كل من يسمعها يصاب بالبرد ويرتجف حتى ينزع لحمه عنه ولا يعود سوى عظام جافة.

Twitter: @ketab_n

كان الرأس قد قال للفتى أن يضع بعض نبات البرسيم في أذنيه لكي لا يسمع الأغنية. حين باتا قريبين من الكوخ قال للفتى: «سأطرح عليها السؤال: منذ متى أنت هنا؟ وهذا السؤال سيكسر سحر أغنيتها عليّ، لكنك سترى الشعر يتساقط من رأسي. عليك أن تعيده فوراً وسينمو ويصير طويلاً جداً؛ ثم سأنقضّ عليها وأعضها. عليك أن تأخذ قطع اللحم من فمي وترميها بعيداً عنك، قائلاً: كوني ثعلباً، كوني طائراً، أو أي شيء تختاره، وحينئذ ستركض ولن تعود البتة».

بينما زحفا صعوداً إلى الكهف صاح الرأس: «منذ متى أنت هنا؟».

بدأ شعره بالتساقط في خصل طويلة كثيفة جعل «الظبي الصغير» يعيدها فوراً إلى موضعها. ثم هجم الرأس على الساحرة وراحت تصرخ راجية الرحمة، لكنه أجابها: «أنت لم ترحمي الآخرين، يجب أن تموتي!».

وما زال يعضها حتى أجهز عليها، وإذا بالسهل يحتشد بالحيوانات والنهر يمتلئ بالأسماك. وبغية التأكد من ألا تعود الساحرة ثانية إلى الحياة أحرقا عظامها ونثراها فوق النهر.

Twitter: @ketab_n

ثم طلب الرأس من «الظبي الصغير» أن يبحث عن العظام التي تبلغ عاماً التي تكون أكثر بياضاً من العظام الأخرى وأن يجمعها معاً.

قال الرأس: «الآن، سأعود إلى البيت وبينما أذهب سأثير عاصفة تضرب باب الكهف. حين تلمس العظام يجب أن تقول: انهضوا جميعاً».

كان «الظبي الصغير» قد فرغ من وضع آخر عظمة حين سمع عويل الريح في الغابة. فصاح: «انهضوا جميعاً!».

وقفت العظام واكتست سريعاً باللحم. تعرف الإخوة بعضهم بعضاً وجميعهم أثنوا على «الظبي الصغير» لشجاعته وصبره. ثم اختفوا في درب الغابة.

Twitter: @ketab_n

# مغامرات التمثال الحيّ

كان التمثال الحيّ ساحراً عظيماً من قوم أوتاوا، عاش على ضفاف «لايك هورون». وقد صنع كوخه من الجلد الذي حُفّ وبيّض حتى صار يتوهّج كالثلج حين تشعّ عليه الشمس؛ وكان يُرى من مسافات بعيدة. أما عامود الكوخ فقد امتلأ بالتصاوير، بعضها رسمه الساحر نفسه وبعضها آخرون من أصدقائه، وكل واحد من التصاوير يروي قصة رائعة عن سحره.

كان فراشه من جلد الثور الأبيض، وهو جلد نادر باهظ الثمن. وكانت غلايينه مثار إعجاب كلّ من يراها، لأنها زُيّنت بالريش الأحمر من صدر طائر أبو الحناء، والأزرق من طائر الزرياب، والقرمزي من عنق الحمام، والأخضر من حلق ذكر البطّ. أما أخفافه المصنوعة من جلود الأرانب، فقد صبغت بالأرجواني، وكانت من أنعم ما يمكن صنعه، كما طرّزت بالأصداف التي جاء بها الرسل من قبيلة بعيدة، تلقوها من ذوي الوجوه الشاحبة الذين يعبرون بحيرة سالت لايك. لكن أروع

Twitter: @ketab_n

ما في تلك الأخفاف أنها سحرية؛ ذلك أن كل خطوة يخطوها وهو ينتعلها تحمله ميلاً إلى الأمام.

كان نايه مصنوعاً من القصب من غابة المستنقعات. حين يعزف نغمة عالية تجيب الصخور البعيدة، ويحمل الرجال المختفون الصغار[1] الذين يرقصون في ضوء القمر الموسيقى ويعيدونها ضحكاً إليه. حين يعزف برقّة عليه لا يسمعه أيّ هندي، ذلك أن الصوت يذهب مباشرة إلى قلوب الأزهار. والجنيات التي تسمع الموسيقى تخرج وتقف على سويقات الزهور لكي تسمع بصورة أفضل.

كانت «التوتة الحلوة»، أخت الساحر، التي يُرى رداؤها المصنوع من جلد الظبي في قمر الليالي الناصعة، تجلس أحياناً على أعلى أغصان الشجرات العالية لكي تصغي. كانت تعيش في السابق معه، بيد أن الأمير القمر اتخذها عروساً له، وكل القبيلة حزنت من أجلها كأنها ماتت.

كان «التمثال الحيّ» يحادث الطيور والسناجب، التي تخمد فيها الروح وتخرج من جلدها حين يطلب منها ذلك. كان صديق جميع الأرانب التي كانت تفتخر بأنه يتناولها طعاماً له.

(1) الجن (م).

Twitter: @ketab_n

حين ينهي وجبته، كان يقرأ قصة حياة الحيوان في عظامه، وإذا كان صالحاً في حياته كان يربّت جلده فيعود إلى الحياة ولا يمكن اصطياده البتة بعد ذلك.

ذات يوم، بينما كان «التمثال الحيّ» يسير في السهل الذي يقع بمحاذاة الصحراء، التقى رجلاً صغيراً لا يبلغ طوله أكثر من ركبته. كان القزم مرتدياً ثياباً خضراء وقبعة خضراء تعلوها ريشة حمراء[1].

قال القزم، معترضاً طريق الساحر: «قاتلني، قاتلني».

حاول «التمثال الحيّ» أن يركله ويبعده عن دربه، سوى أنه وجد أن القزم يفوقه قوة. حاول بلا جدوى حمله، فراح يصارعه أخيراً حتى تعبت يداه؛ لكن القزم لم يهزم، وأخيراً بجهد عظيم منه تمكن من دفعه بعيداً عنه، ثم انقضّ عليه بكلّ قوته وتمكن من طرحه أرضاً. وتمدد فوقه بسرعة، وأخرج خنجره واستعد لسلخ فروة رأسه.

فناشده القزم: «مهلاً، مهلاً، أرى أن ساحر أوتاوا محارب شجاع بقدر ما هو ساحر عظيم. لقد قاتلني وهزمني من دون اللجوء إلى السحر. وسأعلمه سحراً أعظم من كل ما رآه في حياته».

(1) وصف الجنّ عند الهنود الحمر (م).

Twitter: @ketab_n

حين انتهى من الكلام قذف نفسه إلى الخلف وتحوّل إلى قرن ذرة ملتو، تدحرج وتوقف عند قدم الساحر.

قال الكوز: «خذني، مزّق القشرة التي تكسوني ولا تترك شيئاً يحجب بدني عن عينيك. ثم مزّق بدني أشلاء، وانتزع كل اللحم من العظام وانشره في أنحاء مختلفة من السهل. غطني بالتراب حتى لا تلتهمني الغربان. وعليك أن تكسر عمودي الفقري قطعاً لا تكون أكبر من إبهامك ثم تنثرها قريباً من حافة الغابة. عد إلى قريتك حين تنتهي من هذا، ثم عد إلى هذا المكان بعد قمر واحد».

فعل «التمثال الحيّ» بالضبط ما أشار به القزم عليه، لكنه لم يخبر شعبه بأمر مغامرته هذه. فليس من شأنهم فهم أمور السحر؛ قد يحاولون فعل ما فهمه هو وحده وعندئذ ستشعر الأرواح بالإهانة.

حين بزغ القمر الدافئ عاد «التمثال الحيّ» إلى السهل حيث صارع القزم، وإذا به يرى أمامه حقلاً من الوريقات الخضراء الطويلة تلوح في الشمس. كانت ناعمة وتكاد تكون مستوية مع الأرض، إلا أنها كانت لمّاعة براّقة.

Twitter: @ketab_n

بينما كان ينظر ويتساءل قفز القزم من الوريقة الأعرض وقال: «حسناً ما فعلت. دع قمراً واحداً يمرّ ويظهر واحد آخر ثم عد ثانية. عندئذ ستجد طعاماً جديداً لشعب أوتاوا أفضل من الأرز، بل إنه حلو المذاق كدم القيقب، ويمنح القوة كلحم الغزال».

في الوقت المحدّد عاد «التمثال الحيّ» إلى هناك ليجد هبة الذرة. جاء بشعبه ليشهد على ذلك وليجمع الذرة. ثم قام هو وثلاثة سحرة آخرون بطلاء أجسادهم بالطين الأبيض ورقصوا حول القدر الذي حضّروا به الطعام، وبعد الانتهاء أخذوا الأكواز وأحرقوها كأضحية. ثم أطفأوا النيران وأشعلوا ناراً أخرى طهوا فيها «ثمرة الروح» لأنفسهم.

ذات ليلة حين كان «التمثال الحيّ» نائماً، سمع اهتزازاً في ستارة خيمته، وسرعان ما دخل قزمان إلى الخيمة وزحفا إلى فراشه. وقف أحدهما على رجليه وجلس عند منفرجهما، وصعد الثاني إلى صدره وبدأ يتحسّس حلقه.

قال القزم الذي عند قدميه: «اخنقه! اخنقه!».

أجابه الثاني: «لا أستطيع، يداي صغيرتان وضعيفتان جداً».

قال الأول: «فلتنتزع قلبه! فلتنتزع قلبه».

Twitter: @ketab_n

بدأ الأول بالشدّ على صدر النائم. فقام ذلك الجالس على رجليه بركل زميله وقال بصوت أقرب إلى الفحيح: «أيها المغفّل! أخرجه عبر فمه».

فتح القزم فمّ «التمثال الحيّ» بالقوة ومدّ أصابعه داخل حلقه. وهذا ما فكر الساحر بأنه سيفعله، لذا حين كانت أصابعه داخل فمه أطبق أسنانه بسرعة واقتلع الأصابع. ثم نهض ببطء وقذف القزم الذي كان جالساً على رجليه وجعله يرتطم بباب الكوخ.

«آه، آه»، صرخ ذلك الذي تعرض للعض وراح ينبح كالكلب.

«آه، آه»، صرخ الآخر، وعوى مثل ذئب بينما اختفى كلاهما في الظلمة.

ظلّ الساحر على سكونه، ثم زحف إلى الباب، وأزاح الستارة وأطلّ برأسه لكي يعرف بأيّ اتجاه ذهبا. سمعهما يسرعان عبر الغابة نحو البحيرة. سمع صوت طرطشة ناعمة، تشبه غوص القارب في الماء تحت ثقل راكبه، وكل شيء كان ساكناً.

Twitter: @ketab_n

في الصباح وجد «التمثال الحيّ» أن الأصابع التي بترها أصبحت عقوداً من الوامبام (الأصداف) التي يجلّها الهنود كثيراً، والقيّمة جداً إلى درجة أنها جعلت الساحر فاحش الثراء. لم يجد مشقة في تتبع أثر القزمين، فقد كان معلّماً بقطرات الدم التي تحوّلت إلى أصداف. أصبح لديه ما يكفي لصنع معطف وقبعة وقماطاً، حتى بات معروفاً منذ ذلك الوقت أمام جميع الأمم بوصفه «أمير الأصداف».

حين وصل إلى ضفة البحيرة رأى قارباً حجرياً يبلغ طوله أربعة أضعاف قاربه وأبيض كالموج حين تجرّه الريح القوية إلى الضفة. كان في القارب رجلان، أحدهما في مقدّمه والآخر في مؤخّره. وقد جلسا بشكل مستقيم واضعَين أيديهما على ركبتيهما، من دون أن ينظرا باتجاهه. حين اقترب أكثر رأى أنهما ليسا إلا القزمين وقد تحوّلا حجرين. كان المركب مليئاً بأكياس من جلد الدب، الذي كان بمثابة كنز للساحر لم ير مثله من قبل ولا تخيّل الحصول عليه يوماً.

بينما أوشك على أخذ بعضها كلمه القزم الذي انتزع أصابعه قائلاً: «بهذه الطريقة ستكون قوارب شعبك مليئة وهم يعبرون هذه الضفاف، ولن يتمكن عدو من سرقتهم».

Twitter: @ketab_n

أخذ الساحر التمثالين إلى كوخه وبعد ذلك وضعهما في الكوخ المقدّس[1] للقبيلة، ووضع القارب الأبيض بينهما.

زعماء كثر تمنوا تزويج بناتهم لأمير الأصداف، بيد أنه اختار فتاة نجمة، وذهبا ليعيشا في حقول السماء، قرب الدرب الأبيض الضبابي، درب الموتى.

Twitter: @ketab_n

(1) هو الكوخ الذي يمارس فيه كبار القبيلة صلواتهم ويتلون أدعيتهم ويدخّنون الغليون المقدّس (م).

# طائر القمريّة والطّيهوج[1] والساحرة

كانت «القمريّة» أرملة تعيش مع ولديها، العصفورة الصفراء، وهي فتاة في الحادية عشرة، و«الطّيهوج»، وهو مجرد طفل. كانت الفتاة ضخمة الجثة غريبة الأطوار خرقاء؛ أما الصبيّ، مع أنه مجرد طفل، فقد نمّت عنه إشارات ذكاء لامع.

كانت «القمريّة» شديدة القلق عليه، لأن ساحرة عجوزاً تعيش في الجوار اعتادت أن تخطف كل طفل تعثر عليه.

ذات يوم قصدت «القمريّة» الوادي لكي تجمع البقول. حملت طفلها على ظهرها، إلا أنه كان ثقيلاً، وبعد بعض الوقت تعبت من حمله. فوضعته تحت نبتة ميرمية، وطلبت من أخته أن تنتبه له.

بعد قليل مرت الساحرة العجوز من هناك، وحين اقتربت من الصرّة التي يغفو فيها الطفل تحسستها وسألت العصفورة الصفراء عما تحتويه.

(1) طائر القمريّة Turtle Dove: نوع من الحمام. والطيهوج Sage Cock: ذكر الدجاج البرّي (م).

Twitter: @ketab_n

أجابت الفتاة: «هذه أختي»، إذ ظنّت أن الساحرة لن ترغب في سرقة فتاة.

ثم وبّختها العجوز، وصار غضبها يزداد حتى جحظت عيناها وهي تحملق بالفتاة، وراحت خصل شعرها القذرة تهتز مثل أغصان الأشجار العارية. شعرت العصفورة الصفراء ببرد قارس ولم تتمكن من الصراخ، لشدة ذعرها.

بعد أن رأت الساحرة العجوز أن أحداً لن يمنعها حملت الصرة الصغيرة وطارت بها على أجنحتها الشبيهة بأجنحة الخفاش إلى الجبل البعيد الذي لا يستطيع بشري الوصول إليه بسبب غابة الأفاعي السامة في أسفله.

حين وصلت إلى وكرها، وهو كهف فحمي مسودّ تستره عن الأنظار أجمة من نبات الشّوكران، وضعت الصبي أرضاً، وفكّت خيوط جلد الظبي الذي تشدّ بطانيته المصنوعة من الفرو ومطّت رجليه حتى صار رجلاً.

ثم قالت: «الآن، سأتخذه زوجاً لي».

رغم أن «الطّيهوج» بات بحجم رجل غير أن قلبه بقي قلب طفل ولم يكن يعرف شيئاً عن الزواج من ساحرة عجوز دميمة.

Twitter: @ketab_n

حين عادت «القمريّة» وسمعت قصة العصفورة الصفراء غضبت كثيراً ولم تسامح الفتاة لأنها لم تحاول أن تنادي عليها. أمضت يوماً بعد يوم بحثاً بين الصخور وفي أي مكان قد يلوذ به وحش برّي أو ساحرة. لم تترك جنبة أو دغلاً، أياً كان صغيراً، من دون أن تبحث فيه، لكن كل هذا ذهب هباء. أخيراً مضت إلى أخيها النسر، وروت له القصة.

كان النسر صياداً رشيقاً قويّ البصر. وضع ريشه الحربية على رأسه وطلا وجهه بطلاء الحرب وخرج بحثاً عن الصبي.

ذات يوم سمع طفلاً يبكي لكنه لم يتعرّف الصوت. فأخبر أخته التي رجته أن يدلّها على المكان لأنها شعرت يقيناً بأنها ستتعرّف صوت الطفل وهو سيتعرف صوّتها.

مضيا إلى جبل الساحرة. قبل أن يصلا إليه سمعا بكاء الطفل؛ لكنهما لم يعرفا كيف يصلان إليه بسبب غابة الأفاعي.

فكّر النسر بأن يجرب سحره، فقد كان أحد سحرة القبيلة. أخذ ريشتين من قبعته وحوّلهما إلى جناحين

Twitter: @ketab_n

ألصقهما بكتفيه. ثم وضع «القمريّة» على ظهره وطار بها فوق الغابة.

اختبأ الاثنان بين بعض الأشجار وجعلت الأم تنادي: «أيها الطّيهوج، أيها الطّيهوج».

صرخ الطفل وسعى للخروج من الوكر. لكن الساحرة أمسكت به. ثم بضربة واحدة من عصاها قتلت وعلاً جبلياً قريباً، وأخذت الصبيّ بذراعيها، قفزت إلى معدته، ووضعت الصوف عليهما وأقعت بكلّ سكون.

في الأثناء قتل النسر أرنباً ووضعه على رأس شجرة صنوبر، ثم قشّر اللحاء لكي يصعب تسلّق الشجرة. ومكث هو والأم ينتظران لأيام لكن دونما نتيجة.

أخيراً شعرت الساحرة العجوز بالجوع، وبدأ «الطّيهوج» بالبكاء طلباً للطعام فاضطرت الساحرة إلى مغادرة ثوب الوعل، وحين رأت الأرنب سعت للحصول عليه.

حين رآها النسر علم أن الطفل لابدّ من أن يكون قريباً. تمدّد على الأرض وأصاخ السمع.

Twitter: @ketab_n

أولاً سمع بكاء مكتوماً بدا يأتي من الوعل، وحين اقترب أكثر، سمع قلب الطفل يدق وعلم أين يبحث. وجد الصبي فحمله وهرع به بسرعة إلى طرف غابة الأفاعي.

عالماً أن الساحرة العجوز ستلاحقه، أنهض عاصفة ثلجية عظيمة، غطّت كل أثر له، فلم تعرف الساحرة في أي اتجاه ذهب.

بيد أنه في عجالته أوقع ريشتين، والساحرة علمت فوراً أنه هو من سرق زوجها. فقصدت أخاها وهو أحد زعماء الأفاعي، وطلبت منه مساعدتها. كان أخوها يمقتها لأنها دائماً ما تتسبب له بالمشكلات، لكنها كانت أخته ولم يستطع الرفض.

في تلك اللحظة سمعت صرخة الحرب الخاصة بالنسر؛ وإذ لم يكن لديه مكان يخبئها فيه فقد فتح فمه وتركها تقفز إلى الداخل. وظلت تتحرك وأزعجته كثيراً حتى إنه بعد مرور النسر حاول التخلص منها. لكنه لم يستطع ذلك، وأخيراً شدّ نفسه بقوة بحيث خرج من جلده.

أما الساحرة التي ظلت في الجلد فهي تمضي بين الصخور حتى يومنا هذا، ساخرة من كل من يمر، وإن لم يكن أحد يستطيع

Twitter: @ketab_n

رؤيتها. ويسميها ذوو الوجوه الشاحبة بالصدى.

عاد «الطّيهوج» طفلاً مثلما كان، وحين كبر صار زعيماً قوياً، وصار خلفاً لخاله النسر، كمحارب وساحر.

Twitter: @ketab_n

# جزيرة الهياكل العظمية

كان «الموجة العملاقة» وابن أخته الصغير «الصدفة الحمراء» يعيشان معاً في غابة بعيدة. كان الصبي القريب الوحيد للشيخ الهرم ويحبه كثيراً. وقد أحضر «الصدفة الحمراء» وأخته «الميرمية البرية» إلى بيته قبل بضع سنوات بعد أن قضى الوباء العظيم على معظم أبناء قبيلته، ومن بينهم والد الطفلين ووالدتهما. ولم تمض سوى أشهر قليلة حتى خطف الفتاة عملاق يعيش في «جزيرة الهياكل العظمية».

حذّر «الموجة العملاقة» الصبي من الذهاب شرقاً، لأنه إذا اجتاز الخط السحري الذي رسمه بالأصداف المقدّسة، فسيجد نفسه تحت رحمة العملاق.

أطاع الصبي خاله لبعض الوقت، لكنه كبر أكثر فأكثر وسئم اللعب في مكان واحد، فمضى شرقاً، من دون أن ينتبه إلى اجتيازه الخطّ السحري، حتى وصل إلى ضفاف بحيرة واسعة.

Twitter: @ketab_n

أخذ يلعب لبعض الوقت، راشقاً الحصى في الماء ورامياً السهام. وإذا برجل يظهر فجأة ويدنو منه قائلاً: «قل لي أيها الصبي أين هو كوخك؟».

أخبره «الصدفة الحمراء». ثم عرض عليه الرجل التباري في رمي السهام عالياً. كان «الصدفة الحمراء» قد تمرن كثيراً وعلى الرغم من أنه مجرد صبي فقد كانت ذراعه قوية، ويستطيع جرّ السهم إلى الخلف وإطلاقه أعلى مما يستطيع أي إنسان آخر.

ضحك الرجل وقال: «أنت فتى شجاع؛ فلنرَ الآن إذا كنت تجيد السباحة قدر ما تجيد رمي السهام».

غاصا في الماء وحاولا حبس أنفاسهما، ومجدداً فاز الصبي.

حين عادا إلى البرّ، قال له الرجل: «أترافقني بقاربي؟ أنا في طريقي إلى جزيرة فيها طيور جميلة، ويمكنك أن تصطاد منها قدر ما تشاء وترغب».

وافق الصبي على الذهاب وراح ينظر بحثاً عن القارب. بدأ الرجل بالغناء وفوراً ظهر قارب تجرّه ست بجعات بيضاء، ثلاث من كل جانب. صعد إليه الفتى والرجل وقاد الرجل البجعات بالغناء.

Twitter: @ketab_n

كانت الجزيرة شديدة الطول إلى درجة أنه لا يظهر آخرها، لكنها لم تكن شديدة العرض، وكانت كثيفة بالأشجار والعشب ولا تكاد تظهر الأرض، غير أن «الصدفة الحمراء» لاحظ أكواماً من العظام تحت العشب، وسأل عما تكون. فأجابه الرجل أن الجزيرة كانت موضع صيد شهير في الماضي وأن هذه عظام الحيوانات.

بعد الطواف لبعض الوقت اقترح الرجل مسابقة الفتى في السباحة ثانية. لم يمضيا في الماء سوى بضع دقائق حين سمع الصبي غناء وحين نظر حوله رأى الرجل يقفز إلى القارب حاملاً معه ملابسه وملابس الصبي. صرخ الصبيّ إنما لم يعره لا الرجل ولا البجعات أيّ اهتمام.

هكذا تُرك وحيداً وعارياً وكانت الظلمة تهبط سريعاً. ثم تذكر تحذير خاله له، وكان بائساً جداً بسبب البرد والجوع والخوف إلى حدّ أنه جلس أخيراً وراح ينشج بالبكاء.

بعد قليل سمع صوتاً يناديه: «أنت، اهدأ، اهدأ».

نظر حوله فرأى هيكلاً عظمياً ممدداً على الأرض على مقربة منه. أومأ الهيكل إليه قائلاً: «أيها الصبي المسكين، لقد حصل الأمر ذاته معي، لكنني سأساعدك إذا أسديت لي خدمة.

Twitter: @ketab_n

اذهب إلى تلك الشجرة»، وأشار الهيكل إلى شجرة قريبة ثم قال: «احفر في الجانب الغربي منها وستجد جراباً من التبغ وغليوناً. أحضرهما إلي. كما أريدك أن تحضر حجر صوّان من الشاطئ».

ذعر الصبي أشدّ الذعر، غير أن الهيكل العظمي كلّمه بلطف، ولم يبد أنه ينوي به شراً. بالتالي ذهب «الصدفة الحمراء» إلى الشجرة وأحضر الغليون والتبغ وحجر صوّان، ثم طلب منه الهيكل قدحه لكي يشعل ناراً. ثم أشعل الفتى الغليون وناوله للهيكل العظميّ.

راح الهيكل العظميّ يدخّن بسرعة، ساحباً الدخان إلى فمه وتاركاً إياه يخرج من بين أضلاعه. راقب «الصدفة الحمراء»، فإذا بسرب من الفئران يخرج من بين العظام. حين تخلص منها الهيكل العظميّ قال: «الآن أشعر أنني أفضل حالاً، وأستطيع أن أقول لك ماذا يجدر بك أن تفعل لكي تتجنّب مصيري. هناك عملاق سيأتي الليلة مع ثلاثة كلاب لكي يصطادك ويقتلك ويتناولك على العشاء. عليك أن تضيّع أثرك بالقفز في الماء مرات عدة في طريقك إلى الشجرة الجوفاء التي ستجدها على الضفة الأخرى من الجزيرة. في الصباح بعد رحيلهم ارجع إلي».

Twitter: @ketab_n

شكر «الصدفة الحمراء» الهيكل العظميّ وبدأ فوراً بالبحث عن الشجرة. هبطت الظلمة سريعاً، فلم يعد قادراً على رؤية شيء غير أنه ركض من شجرة إلى شجرة، متسلقاً كلاً منها، ونزل في الماء مرات عدة قبل أن يعثر على المكان الذي أشار عليه الساحر أن يأوي فيه.

حين طلع الصباح سمع طرطشة قارب في الماء وسرعان ما رأى عملاقاً ومعه ثلاثة كلاب.

أمر العملاق الكلاب: «عليك اصطياد هذا الحيوان».

راحت الكلاب تتشمّم الأثر في الغابة، راكضة من شجرة إلى أخرى ثم عادت إلى العملاق جارة ذيولها بين قوائمها، لأنها لم تجد شيئاً.

حنق العملاق كثيراً إلى درجة أنه ضرب الكلب الأول بهراوته الحربية فأرداه فوراً. ثم سلخه وأكله نيئاً. ثم قاد الكلبين الآخرين إلى القارب، ورحل بعيداً.

ثم اختفوا عن الجزيرة، فتسلّل «الصدفة الحمراء» من مخبأه وعاد إلى الهيكل العظمي، الذي سأله متفاجئاً:

Twitter: @ketab_n

«أما زلت حياً؟ إنك أنت فتى شجاع. هذه الليلة سيأتي الرجل الذي أحضرك إلى هنا لكي يشرب دمك. عليك أن تذهب إلى الشاطئ قبل هبوط الظلام وأن تحفر لنفسك جحراً في الرمل. حين يترجل الرجل من قاربه اصعد إليه وقل للبجعات: «هيا أيتها البجعات، فلنعد إلى الديار». إذا ناداك الرجل عليك ألا تلتفت نحوه أو تنظر إليه. وحين تمسي حراً لا تنسني».

وعد «الصدفة الحمراء» بالعودة إلى الجزيرة لكي يفعل كل ما في وسعه للعظام المسكينة. ذهب إلى الشاطئ وحفر حفرة عميقة بما فيه الكفاية بحيث أنه حين وقف على رجليه كان رأسه بمستوى الماء. حين سمع صوت الغناء علم أن البجعات آتية؛ فغطى رأسه بالرمل وانتظر حتى سمع خطوات الرجل على العشب الجاف.

ثم تسلّل من مخبأه، وصعد إلى الزورق وهمس للبجعات «لنعد إلى البيت»، وبدأ يغني الأغنية التي سمعها من سيد البجعات، فمضى القارب مبتعداً عن الشاطئ.

حملته البجعات إلى صخرة كبيرة في وسط البحيرة. وعبرت فتحة فيها حتى وصلت إلى باب حجري.

Twitter: @ketab_n

حاول «الصدفة الحمراء» فتح الباب لكنه لم يستطع. ثم التفّ بالقارب وضرب الباب بمؤخره.

فُتح الباب ووجد «الصدفة الحمراء» نفسه في كوخ جميل. رأى ثيابه وثياباً أخرى مكوّمة في الركن قرب الموقد المتوهّج. كان ثمة حساء يغلي على النار وبعض البطاطا في الرماد.

إذ لم ير أحداً تناول الصبي الطعام واضطجع على الفراش المصنوع من جلود الهررة البرية.

في الصباح خرج وركب القارب وقال: «هيا أيتها البجعات فلنذهب إلى الجزيرة».

رأى الكلبين نائمين في الشمس وحين وصل إلى اليابسة اكتشف أنهما قتلا سيدهما.

سرّ الهيكل العظميّ برؤيته وامتدحه على بسالته وصدقه في وعده. لكنه قال له: «عليك بالعودة إلى دارك الآن. امضِ شرقاً لثلاثة أيام وستصل إلى بعض الصخور الكبيرة. هناك ستجد فتاة يافعة تجرّ الماء من نبع. هذه أختك، الميرمية البرية، التي خطفها العملاق قبل أقمار كثيرة والتي كنت تحسبها ميتة. ستتمكن من أخذها معك. وحين تفعل هذا عد إليّ».

Twitter: @ketab_n

انطلق «الصدفة الحمراء» من فوره باتجاه الشرق وسافر لثلاثة أيام حتى وجد الصخور التي وصفها له الهيكل العظميّ. حين اقترب رأى فتاة جميلة تجرّ الماء. هتف وهو يقترب منها: «أختاه! يجب أن تعودي إلى الديار معي».

خافت منه وحاولت الفرار. لكنها حين التفتت إلى الخلف تبيّنت أنه أخوها حقاً، فخافت أكثر، وإن التفتت وكلمته: «اسمع، هناك عملاق يحتجزني هنا. اذهب قبل أن يراك ويقتلك».

لم يتحرك «الصدفة الحمراء».

قالت أخته: «هيا اذهب».

«لا، ليس قبل أن تأتي معي. خذيني إلى كوخك».

كان العملاق قد ذهب إلى مستنقع من العليق، وكانت «الميرمية البرية» تعرف أنه لن يعود قبل المساء؛ فجازفت بأخذ أخيها معها. حفرت حفرة في زاوية الكوخ وطلبت منه النزول فيها، ثم غطته بفراشها من جلود الثيران.

قبل هبوط الظلمة بقليل دخلت كلاب العملاق مسرعة وهي تنبح بشراسة، فصاح العملاق: «من يختبئ هنا؟».

أجابته «الميرمية البرّية»: «لا أحد».

Twitter: @ketab_n

قال العملاق: «بل ثمة أحد، ما كان الكلبان لينبحا على هذا النحو لولا ذلك».

لكنّ الكلبين لم يعثرا على «الصدفة الحمراء»، فجلس العملاق ليتناول العشاء.

قال العملاق: «هذا الصبي ليس طرياً، ليس مطبوخاً كفاية. قومي وضعيه ثانية على النار».

لكنها أجابته: «اطهه بنفسك إذا لم يكن يناسبك».

لم يعبأ المارد بجوابها، بل طلب منها أن تُخلعه خفيّه.

«اخلعهما بنفسك».

فكّر العملاق: «بئساً، الآن بتّ أكيداً من أنها أنها تخبّئ أحدهم. وسأقتله في الصباح».

باكراً في صباح اليوم التالي قال العملاق إنه ذاهب إلى المستنقع لإحضار بعض الأطفال للعشاء. لكنه لم يبتعد كثيراً عن الكوخ، بل اختبأ بين بعض الأشجار على مقربة من الضفة.

رأى «الميرمية البرية» وأخاها يصعدان إلى القارب فرمى عقافة خلفهما تعلّقت بالقارب وشدّته إلى الضفة. لكن «الصدفة

Twitter: @ketab_n

الحمراء» أخذ حجراً وكسر العقافة وابتعدا بالقارب فوراً.

ثارت ثائرة العملاق. تمدد على الأرض ووضع فمه في الماء وشرب بسرعة أعادت القارب إلى الضفة. بدأ العملاق يختنق من شربه كميات كبيرة كهذه فلم يعد قادراً على الحراك. أخذ «الصدفة الحمراء» حجراً آخر ورشقه به فانشق العملاق إلى اثنين، وتدفقت المياه التي ابتلعها إلى البحيرة.

أبحر «الصدفة الحمراء» وأخته عندئذ إلى الجزيرة حيث سارع الكلبان اللذان التهما سيدهما للقائهما. رفع الصبي يده مهدداً وقال: «فلتذهبا إلى الغابة ولتهيما كالذئاب. أنتما لا تستحقان أن تكونا كلبين بعد الآن».

انسلّ الكلبان مبتعدين وهما يهرهران، وما إن ابتعدا حتى تحوّلا إلى كلبين جائعين ضامرين.

عاد «الصدفة الحمراء» إلى الهيكل العظمي الذي أمره بجمع كل العظام التي يمكنه العثور عليها على الجزيرة ويضعها جنباً إلى جنب في مكان واحد. ثم أن يقول لها: «أيها الموتى، فلتنهضوا».

تطلبه الأمر وأخته أياماً كثيرة لفعل ذلك لأن العظام كانت منتشرة في كل مكان. وحين جمعاها أخيراً في مكان واحد

Twitter: @ketab_n

وقف «الصدفة الحمراء» على بعض المسافة وقال بصوت عال: «أيها الموتى، فلتنهضوا!». فنهضت العظام واتخذت أشكالاً بشرية. كل الرجال كان معهم أقواس وأسهم، لكن بعضهم كان بذراع واحدة، وبعضهم الآخر برجل واحدة فقط. أما الهيكل العظميّ الذي التقاه «الصدفة الحمراء» أولاً فأصبح محارباً طويلاً وسيماً وكامل الجسد. حيا «الصدفة الحمراء» كزعيم فاحتذا الآخرون حذوه.

ثم عبر الصبي وأخته البحيرة وسافرا غرباً حتى وصلا إلى كوخ خالهما. كان كهلاً جداً، وقد خمدت نيرانه وما زال يبكي على ابن أخته. إلا أنه حين سمع قصة مغامرات الفتى أدرك أنه عاد من دون أذية، وقد كبر بضع سنوات.

بنوا كوخاً طويلاً فيه الكثير من المواقد؛ ثم عاد «الصدفة الحمراء» إلى الجزيرة وأحضر أولئك الذين كانوا هياكل عظمية. وقد تزوّج الشجاع الوسيم الذي يعرف باسم «النسر الأبيض» من «الميرمية البرية»، وعاشوا جميعاً بسلام حتى نهاية أيامهم.

Twitter: @ketab_n

# القميص الحجريّ و«الأول - الثاني»

كان «القميص الحجري» عملاقاً رهيباً يرتدي قميصاً من الأصداف المحكمة إلى بعضها حتى يستحيل أن يخترقها أي سهم. كان يعيش مع بناته الثلاث على ضفة الأزرق الكبير.

لم تكن بناته شريرات أو سيئات النية، إلا أنهن كنّ مجبرات على ممارسة شتى أنواع الشرور لحماية أبيهن. كانت لديهن سهام سرية تمضي حيث يتمنين وتجد طريقها مباشرة إلى قلوب أعدائهن، وإن رُميت من دون تسديد.

رأى «القميص الحجري» وهو يصطاد ذات يوم امرأة حسناء تجمع السوسن. فسألها: «من أنت؟».

خافت المرأة منه وقالت له: «أنا حربة النعناع».

«لا، لست كذلك. أنت الفأرة، زوجة الغرنوق. سأقتله وستصبحين ملكي. اقتلي طفلك قبل أن أعود أو سأحطمه أشلاء أمام ناظريك».

Twitter: @ketab_n

حملت الفأرة الصبي ولم يكد يتوارى العملاق عن الأنظار حتى هرعت به إلى جدته. ثم عادت ولطخت الحجارة ببعض دماء لحم دب طازج رمته في البحيرة.

لم تكن بقادرة على إنذار زوجها، لأنه مضى إلى الصيد بعيد الغروب، ولم تعرف من أي طريق ذهب أو متى يمكن أن يعود. لم يكن هناك من مفر أمامها.

لم يطل غياب العملاق، وحين عاد كان يحمل جمجمة زوجها «الغرنوق»، الذي التقاه في طريق عودته إلى كوخه. ممسكاً الفأرة من شعرها هزّ فروة الرأس أمام وجهها، ثم جرّها في الغابة.

طرح الظبي قرنيه مرات عدة، وكبر الطفل وصار شاباً قوياً، وذات يوم ذهب مع جدته لإحضار جذور «عشبة البرك». أخذا معهما سكيناً ماضية لكي يقطعا به الجذور القاسية.

بعد أن أمضيا بعض الوقت في المستنقع، اكتشفا أن الجذور تخرج بسهولة ثم بسهولة أكبر حتى أخيراً صار يكفي مسك الشتلة حتى تُقتلع من الأرض. قالت العجوز: «بالتأكيد سيحدث أمر غريب، فلنعد إلى البيت، لا أريد المزيد من العشب اليوم».

Twitter: @ketab_n

أخذ الصبي حفنة من «عشبة البرك» إلى المكان الذي وضع فيه الأخرى، لكنه وجد الكومة مختفية. نادى على جدته وسألها ما إذا نقلت الشتول.

قالت: «لا يا بني، ربما سرقها عملاق ما، فلنعد إلى البيت».

نظر الصبي حوله وسرعان ما لمح رجلاً يجلس على مقربة تحت شجرة. شعر بالثقة بأن هذا الرجل هو من سرق الشتول، فحمل بعض الحصى ورشقه بها وهو ينادي: «أيها اللص الجبان».

لم يتحرّك الرجل. أخيراً ارتطم حجر أكبر من الحجارة الأخرى بساقه فكسرها. رفع الساق، وربطها بخيط من معطفه ثم عاود الجلوس تحت الشجرة. ثم أومأ إلى الصبي، مشيراً إلى بعض العظام أمامه وسأله: «عظام من هذه؟».

أجاب الصبي: «عظام أيل أو ظبي».

قال الرجل: «لا، هذه عظام أبيك. ألم تخبرك جدتك أن القميص الحجري قتله وترك عظامه لتتعفن مثل عظام الذئب؟».

قال الصبي: «لا».

Twitter: @ketab_n

قال الرجل: «ألم تخبرك عن أمك التي خطفها القميص الحجري».

قال الصبي: «لا». لكن الرجل رأى أنه سيقاتل العملاق، فلم يقل المزيد، بل اختفى فجأة مثلما ظهر.

عاد الصبي إلى جدته وحكى لها ما سمعه. علمت فوراً أن هذه روح. حين لامها الصبي على إخفائها قصة موت أبيه عنه بكت وناشدته: «أنت أملي الوحيد. إذا ذهبت لتقاتل القميص الحجري فسيقتلك وسأصبح وحيدة».

لم يجب الصبي، لكنه ذهب واستلقى على فراش الجلود، لأنه شعر بالنعاس يسيطر عليه. نام ثلاثة أيام وثلاث ليال. حين أفاق رفض الطعام وقال: «أنا ذاهب إلى كل الأقوام لكي أجلب المحاربين ممن يؤيدون قضيتي»، وخرج من الكوخ.

كان الصبي طويلاً وحسن البنية وبينما هو نائم اتخذ وجه شاب. سافر أقماراً عدة، وأينما ذهب أصغى إليه الزعماء، والشبان من مختلف القبائل حملوا أسلحتهم وأعلنوا استعدادهم لاتباعه. بينهم كان ساحران، «ذئب الغابات» و«الثعبان المجلجل».

Twitter: @ketab_n

سار هذان الاثنان معه بعض الطريق، ودخل الثلاثة إلى كوخ جدته. بعد أن تناولوا الطعام الذي أعدّته الجدة بكل سرور، حمل الشاب فأساً حجرياً وناوله للجدة لكي تقسمه اثنين.

رفضت، لكنه ألحّ في الطلب، وأخيراً أمرها بأن تفعل ما يقوله لها بلهجة لم تجرؤ على الرفض أمامها.

هوت عليه بالفأس بكل قوة، ضاربة ذيل الظبي الأحمر الذي يرتديه، وعندئذ - للعجب - اتخذ كل جزء من جسده شكلاً، وبدلاً من محارب واحد وسيم، برز اثنان توأمان يستحيل تمييز أحدهما عن الآخر.

«الأول - الثاني» كما أسميا نفسيهما خرجا ولاقيا الآخرين الذين كانوا الآن يتقدّمون في الغابة. كان عددهم عظيماً حتى إنها كانت مسافة مسيرة يوم بين أول الرجال في الصف وآخرهم.

عبروا طريقاً قاحلاً، وطوال اليوم لم يروا شجراً ولا ماء. وفي صباح اليوم التالي بدأوا يئنون من العطش. ومع نهاية اليوم بدأوا يئنون أكثر ويهدّدون «الأول - الثاني» وإن لم يكن أحد أجبرهم على المجيء.

Twitter: @ketab_n

الثعبان المجلجل الذي كان حكيماً قال: «أيها الأول – الثاني، آن أوان أن تحضرا كوبيكما السحري».

كان هذا الكوب زبدية كبيرة من خشب الزيزفون، يمكن حملها باليد بيد أنه حين ينظر إليها المرء لا يرى عمقها. كان «الأول – الثاني» قد حصلا عليها من ساحر في بداية الرحلة. وقد ختمها كما قيل له، بورقة زنبق مائي وببلسم شجر التنّوب، واحتفظ بها لاستعمالها وقت العوز الشديد.

تشاور الأخوان معاً وقررا الأخذ بنصيحة «الثعبان المجلجل». صار الكوب ينتقل من شخص إلى آخر، وما إن يرتوي أحدهم حتى ولو شرب نصف الكوب، حتى يعاود الامتلاء. لكن قبل أن يصل إلى «الذئب» كان الأخير قد مات.

ثم بدأ الناس بالتذمّر ثانية، لأن الذئب كان شجاعاً وأمدهم بالشجاعة. لم يعرهم الأخوان اهتماماً، إلا أن أحدهما حمل الكوب بينما الثاني أخذ منه بعض الماء ورش «الذئب».

قفز الذئب صارخاً: «لماذا أزعجتني؟ كنت أرى حلماً جميلاً».

Twitter: @ketab_n

ناولاه الكوب وشرب كل ما فيه، لكن حين أعاده إلى الأخوين لم يمتلئ الكوب من جديد.

كانا قد أحضروا معهمم القليل من الطعام فقط، ولم يعثروا على أي طرائد في طريقهم في المكان القاحل؛ فجاعوا، وفي اليوم الثالث بدأ الناس بالتذمر واتهام الأخوين.

لم يقل «الأول - الثاني» شيئاً، إنما مع اقتراب المساء قالا لـ «الذئب»، الذي كان حاد السمع والشمّ: «أليس هذا وعلاً هناك؟».

أجاب: «بلى، إنه الوعل ذو العيون الكثيرة، حارس القميص الحجري، ومع ذلك سأذهب وأقتله».

ثم قال «الثعبان المجلجل»: «دعني أذهب، إذ سيراك الوعل ويهرب».

لكن «الأول - الثاني» أرسلا «الذئب» إذ كانا يعرفان أنه الأكثر شجاعة. انطلق فوراً، ومشى بطريق متعرجة لكي لا يراه الوعل.

وبعد رحيله قال «الثعبان المجلجل» للأخوين: «أترياننني؟».

Twitter: @ketab_n

«لا»، كان الجواب وجعلا يبحثان عنه. لكن دون فائدة حتى قرّر «الثعبان المجلجل» أن يظهر نفسه، مع أنهم كانوا يقفون في مكان مفتوح لا يترك مجالاً للاختباء.

طلب «الثعبان المجلجل» الإذن ثانية لصيد الوعل. فوافق الأخوان وبعد بضع ساعات عاد يحمل الفريسة على كتفيه.

رآه «الذئب» يمرّ به، وفي أول الأمر غضب بشدّة، إلا أنه بعد ذلك حدّث نفسه: «ما المهم ما دام القوم يجدون الطعام؟».

مجدداً نفد منهم الماء، فحوّل «الأول – الثاني» نفسيهما إلى حمامتين، وأخذا الكوب السحري وطارا به نحو كوخ «القميص الحجري»، وكانا يعرفان مكانه على ضفاف البحيرة.

كانت بنات «القميص الحجري» يستحممن في البحيرة صباح كل يوم؛ وقد أزعجهن هذان الطائران اللذان يختلسان النظر إليهما فنصبا لهما فخاً.

وقد علق «الأول – الثاني» في الفخ، وحملتهما الفتيات إلى الكوخ. نظر إليهن «القميص الحجري» مرتاباً، لأنه كان يعلم أنه ليس ثمة من طيور كهذه الطيور تعيش في تلك المنطقة، وخشي أن يكونا جاسوسين. بيد أن بناته أقنعنه بألا يقتلهما. اهتممن

Twitter: @ketab_n

بهما وغذياهما وفي الصباح تركوهما يطيران.

عاد الأخوان إلى الدغل حيث أوقعا الكوب وحملاه وطارا به إلى المخيم.

في اليوم التالي جازفا بالاقتراب من كوخ «القميص الحجري» وهما بشكلهما الطبيعي. هذه المرة رأيا أمهما. لم تصدّق قصتهما في البداية لأنها تركت ولداً واحداً فقط. لكن حين شرحا لها كل شيء، رجتهما ألا يقاتلا «القميص الحجري» وأخبرتهما عن درعه وعن سهام بناته.

لكن لم يكن ممكناً ثنيهما عن قرارهما. أخبراها أنهما سيقاتلان العملاق في يوم غد، وأنذراها بأن تذهب إلى البحيرة لكي لا يصيبها سهم شارد.

تلك الليلة تنكّر «الأول - الثاني» بهيئة فأرين وتسللا إلى كوخ «القميص الحجري»، حيث قضما خيوط جميع أقواسه. وقد رافقهما «الثعبان المجلجل» واختبأ وراء صخرة يجلس عليها «القميص الحجري» كلّ صباح.

حين ظهر العملاق كالعادة عضه «الثعبان المجلجل». فقفز عالياً في الهواء وصرخ «لقد تعرّضنا للخيانة!».

Twitter: @ketab_n

حملت بناته الأقواس والسهام غير أنهن اكتشفن أنها بلا فائدة. صرخة القميص الحجري نبّهت المحاربين الذين تقدّموا ليلاً، وكانوا ينصبون فخاً قرب كوخه. أطلقوا سيلاً من السهام ثم عادوا إلى مخبأهم.

أصيبت كلتا الفتاتين، وهما تلوحان بأيديهما لأعدائهما حيث سقطتا، وغنتا أغنية الموت وماتتا على الممر المؤدي إلى الكوخ.

شعر «الأول - الثاني» بالحزن الشديد لأن الفتاتين كانتا لطيفتين معهما. دفناهما بحزن شديد، لكنهما تركا عظام «القميص الحجري» لتتعفن في العراء مثلما فعل بعظام أبيهما «الغرنوق».

Twitter: @ketab_n

# الساحر العظيم

كان «الشعر الأجعد»، ابن ريح الغرب، عملاقاً أسود الوجه كريش الغراب، وشعره مكوناً من الأفاعي الرمادية والسوداء والمرقطة، مع حنش يرفع رأسه الرصاصيّ كتاج له، بينما ثعبان مجلجل يقعي على كتفيه. وكان أعظم السحرة على الإطلاق إذ في مقدوره أن يغيّر شكله إلى أي طائر أو حيوان عندما يرغب في ذلك، ويستطيع تغيير صوته ويفعل الخير والشر بحسب ما يرغب.

كان يعيش مع جدته، التي تسبّبت منافِسة غيورة بطردها من القمر، في كوخ على طرف البراري غير بعيد عن الأزرق الكبير.

هو نفسه لم يكن يعلم بقواه حتى جاء يوم كان يلعب فيه مع ثعبان رائع ألوانه أزهى من أي من الثعابين التي على رأسه، وجد أنه يستطيع من خلاله القيام بالسحر. وقد أمسك بالثعبان ووضعه في وعاء مليء بالماء، وراح يغذيه كل يوم على الطيور

Twitter: @ketab_n

والحشرات، وبالصدفة أوقع بعض البذور، التي تحولت طيوراً ما إن لامست الماء، والتهمها الثعبان بجشع. ثم اكتشف أن كل ما يضعه في المياه تُبثّ فيه الحياة.

ذهب إلى المستنقع، حيث أمسك بالثعبان، لكي يأتي بغيره ويضعه في الإناء. وإذ حكّ عينيه بينما أصابعه ما زالت مبلّلة فوجئ باكتشاف قدرته على الرؤية بوضوح ثاقب لمسافات بعيدة.

جمع بعض الجذور، ووضع عليها المسحوق، ووضعها في الماء. ثم أخذ قليلاً من الماء في فمه ونفخ عليه في رذاذ صنع ضوءاً ناصعاً. حين وضع المياه على عينيه صار قادراً على الرؤية في الظلمة. وإذا حمّم جسده به يمكنه المرور عبر أضيق الأمكنة. وإن غمّس به ريشة يمكنه أن يصيب بها أي طائر يصوّب عليه، إذ إنها تخترق جسده كالسهم.

كان قادراً على شفاء الجراح والأمراض وعلى إلحاق الهزيمة في كل الأعداء، ولكن رغم هذا كله فقد كان روحاً شريرة معظم حياته.

وقد ائتمن والده ريح الغرب أشقاء الشعر الأجعد على رعاية

Twitter: @ketab_n

ثلاثة أرباع الأرض، الشمال، والجنوب والشرق، لكنه لم يأتمنه على شيء، وهو الأصغر سناً. وحين كبر وأدرك كيف أهمل بهذا الشكل غضب بشدّة وسعى إلى قتال أبيه.

أخذ قفازيه المصنوعين من جلد الدب وغمسهما بمياه الثعبان وجعلهما أقوى بالسحر، حتى بات في مقدوره تحطيم جلاميد الصخر الضخمة بمجرد ضربها. طارد أباه عبر الجبال، رامياً صخرة بعد صخرة عليه حتى أوصله أخيراً إلى حافة الأرض. وكان يريد قتل ريح الغرب لو كان يجرؤ، غير أنه خاف من أشقائه، الذين كانوا ودودين جداً مع بعضهم. فأقنع أباه بأن يعهد إليه بالسلطة على الثعابين والحيوانات المفترسة والوحوش من كل الأنواع، وأن يعده بمكان في مملكته بعد أن يخلص الأرض منهم.

بعد أن أمّن حصته على هذا النحو، عاد إلى كوخه، حيث مرض طويلاً بسبب الجراح التي تلقاها خلال قتاله لأبيه.

كانت أولى مغامراته بعد تماثله للشفاء الإمساك بسمكة عملاقة، أخذ منها الكثير من الزيت، إلى درجة أنه حين سكبه في الغابة شكّل بحيرة صغيرة دعا إليها جميع الحيوانات.

Twitter: @ketab_n

ما إن وصلت الحيوانات حتى قال لها أن تقفز في البحيرة وتشرب. مضى الدب أولاً، تبعه الظبي والأوبوسوم[1]. أما الموظ والبوفالو فتأخرا ولم يحصلا على قدر ما حصل عليه الآخرون. وقد انتظر طائر الحجل حتى كاد ينفد الزيت، أما الأرنب الوحشي وحيوان الدّلق فقد تأخرا كثيراً في المجيء فلم يحصلا على شيء. لهذا السبب تختلف الحيوانات إلى هذا الحدّ في سرعتها.

حين انتهيا من الوليمة. حمل «الشعر الأجعد» طبله وقرع عليه ودعا الضيوف للرقص. أخبرهم أن يشكلوا دائرة حوله، وأن يبقوا عيونهم مغمضة باستمرار.

حين رأى ديكاً سميناً يمرّ انتزع رقبته، ضارباً بقوة على طبله لكي يغرق صراخه وجلبة رفرفته. وبعد قتلهم جميعاً قال: «هذه هي الطريقة يا إخوتي، هذه هي الطريقة!».

أخيراً، بطة صغيرة، كانت مرتابة به، فتحت إحدى عينيها، وإذ رأت ما يفعله، نادت بأعلى صوت «الشعر الأجعد يقتلنا»، وقفزت وطارت إلى الماء.

(1) الأوبوسوم Opossum: حيوان أمريكي من ذات الجراب يتظاهر بالموت حين يشعر بالخطر يتهدّده (م).

Twitter: @ketab_n

تبعها «الشعر الأجعد» ولحظة لامست الماء حتى ركلها فتسطّح ظهرها وانقلبت قوائمها إلى الخلف حتى لم تعد قادرة على السير على الأرض وما زال شعر ذيلها قليلاً إلى يومنا هذا.

استغلت الطيور الأخرى الفوضى الناشئة ففرّت بعيداً، وهرعت الحيوانات في كل اتجاه.

بعد هذا انطلق «الشعر الأجعد» في رحلة لكي يرى إذا ما كان هناك سحرة يفوقونه عظمة. رأى كل أمم الرجال الحمر، وكان يعود راضياً تماماً، حتى التقى ساحراً عظيماً على هيئة ذئب هرم، كان يمضي مع ستة من صغاره.

ما إن رآه الثعلب حتى أخبر الصغار بأن يبتعدوا عن الدرب لأن شهرة «الشعر الأجعد» بالقسوة والشر قد بلغت كل مكان من خلال الحيوانات والطيور التي حاول قتلها.

بينما كانت الذئاب الصغيرة تفرّ قال لها «الشعر الأجعد»: «يا أحفادي إلى أين تذهبون؟ انتظروني حتى آتي معكم».

كان الذئب الهرم يشاهد وجاء في الوقت المناسب ليجيب، «إننا ذاهبون إلى مكان نجد فيه أحسن الفرائس، حيث دربي يمرّ بالشتاء».

Twitter: @ketab_n

قال «الشعر الأجعد» إنه يودّ مرافقتهم وطلب من الذئب الهرم أن يحوّله إلى ذئب. وهذا كان غبياً جداً، إذ بهذه الطريقة فقد قواه، ولكن لو كان هو من حوّل نفسه إلى ذئب لكان احتفظ بهذه القوى، لكن حتى أعظم السحرة لا يعرفون كلّ شيء.

حقّق له الذئب الهرم رغبته بكلّ سعادة، وحوّله إلى ذئب مثله. لم يرضَ «الشعر الأجعد» وطالبه بأن يجعله أكبر حجماً. فحقق الذئب الهرم له ذلك، ولما لم يرض كذلك حوّله الذئب إلى ضعف حجم الآخرين.

فسرّ «الشعر الأجعد» كثيراً لكنه فكّر أن يكون أفضل كذلك فطلب من الذئب: «أرجوك اجعل ذيلي أكبر وأكثر شعراً».

ففعل الذئب الهرم هذا ووجد «الشعر الأجعد» ذيلاً كبيراً ثقيلاً.

سرعان ما وصلوا إلى قاع نهر صعدوا منه إلى غابة كثيفة حيث اكتشفوا آثار موظ. تبعته الذئاب الصغيرة، بينما تبعهم «الشعر الأجعد» والذئب الهرم على مهل.

قال الذئب: «من تحسبه الأسرع بين أبنائي؟».

Twitter: @ketab_n

«إنه الأول الذي يقفز القفزات الأوسع».

ضحك الذئب الهرم ساخراً، وقال: «أنت مخطئ، فسرعان ما سيتعب. ذلك الذي يبدو الأبطأ هو من سيمسك بالطريدة».

بعدها بفترة قصيرة بلغا مكاناً حيث أحد الذئاب اليافعة رمى صرة صغيرة.

قال الذئب لـ «الشعر الأجعد»: «التقطها».

أجابه: «لا، فما الذي أبغيه من جلد كلب قذر؟».

حمل الذئب الصرة فتحوّلت إلى رداء رائع.

قال «الشعر الأجعد»: «سأحملها الآن».

قال الذئب: «آه، لا، لا أستطيع الوثوق بك في حمل رداء من اللؤلؤ». وفوراً تلألأ الرداء ولم يعد يظهر منه سوى اللآلئ.

مضيا مسافة سفر ستة سهام أبعد حين رأيا ناباً مكسوراً أوقعه أحد الذئاب الصغيرة بينما يقضم الموظ وهو يمرّ.

قال الذئب: «أيها الشعر الأجعد، أحد الأطفال أصاب الطريدة، التقط سهمه».

Twitter: @ketab_n

أجابه: «لا، فما الذي أبغيه من ناب كلب قذر؟».

حمله الذئب الهرم فإذا به يتحوّل سهماً فضياً رائعاً.

وجدا أن الذئاب الصغيرة قتلت موظاً سميناً جداً. كان «الشعر الأجعد» جائعاً، غير أن الساحر سحره حتى لا يرى أمامه سوى عظام الموظ الجرداء من اللحم. وبعد وقت أعطاه الذئب كومة من اللحم الطازج، أو هكذا بدت للشعر الأجعد، من الهيكل العظمي.

قال «الشعر الأجعد: «يا لقسوته!».

أجابه الذئب، «أجل، إن طريدتنا دائماً كذلك. فالذيل الأطول لا يصنع أفضل الصيّادين».

كان الشعر الأجعد صياداً ماهراً حين لا يتقاعس عن المطاردة. ذات يوم خرج واصطاد موظاً كبيراً سميناً، لكن بما إنه عاش جيداً في كوخ الذئب، لم يكن جائعاً كثيراً، فقلّب الجيفة من جهة إلى أخرى، غير عارف من أين يبدأ. تعلّم أن يخشى حماقات الذئاب، بسبب قلة علمها، غير أنه لم يعد قادراً على تحويل نفسه إلى بشريّ من جديد.

Twitter: @ketab_n

قال: «إذا ما بدأت من الرأس، فسيقولون إنني أكلته بالعكس. وإذا ما قضمت الكشح أولاً فسيقولون إنني أكلته جانبياً». قلبه حتى بات في مواجهة الجزء الخلفي منه «إذا ما بدأت هنا، فسيقولون إنني أكلته من الأمام». لكنه بدأ يشعر بالجوع فقال، «سأبدأ من هنا، وليقولوا ما شاؤوا».

قضم قطعة من الكشح وكان على وشك مضغها حين سمع طقطقة أغصان شجرة كبيرة. «توقفي، توقفي»، قال للشجرة، لأن الصوت أزعجه.

لكن الشجرة لم تعره اهتماماً، فرمى اللحم متنهداً «لا أستطيع أن آكل وسط هذه الجلبة».

تسلق الشجرة وراح يجذب الغصن الذي تسبب بالجلبة عبر احتكاكه بغصن آخر، وفجأة اندفع الغصن نحوه فعلقت مخالبه بين الأغصان المتشابكة ولم يستطع تحريرها وسرعان ما جاءت الذئاب فنادى عليها:

«اذهبوا من هنا!».

عرف زعيم الذئاب صوت الشعر الأجعد وقال للآخرين: «لنمض قدماً، أنا متأكّد من أن ثمة ما لا يريدنا أن نراه».

Twitter: @ketab_n

وجدوا الموظ وبدأوا بالتهامه. لم يستطع الشعر الأجعد الوصول إليهم، فأنهوا الحيوان دون أن يتركوا له شيئاً سوى العظام. بعد رحيلهم نشأت عاصفة فرّقت أغصان الشجرة وتمكن الشعر الأجعد من الخروج لكن كان عليه العودة إلى البيت جائعاً.

في اليوم التالي قال له الذئب الهرم: «يا أخي، سوف أتركك، لأننا لا نستطيع العيش معاً باستمرار».

قال «الشعر الأجعد»: «أعطني أحد أطفالك حفيداً لي».

ترك له الذئب الهرم الأصغر وهو الأمهر في الصيد والكوخ.

زال السحر عن الشعر الأجعد بعد رحيل الذئاب، وحين استعاد شكله الطبيعي عاودته قواه السحرية. كان فخوراً جداً بحفيده فاعتنى به أفضل عناية، مفكّراً ليل نهار في تأمين أحسن حياة له. ذات يوم قال له: «يا حفيدي، لقد حلمت بك ليلة أمس، وأشعر أنك ستعاني من المتاعب ما لم تفعل ما أقوله لك. عليك أن تعبر البحيرة التي في الغابة الكثيفة. مهما بلغت حاجتك أو تعبك عليك أن تلتف حولها، لا أن تمشي فيها وإن بدا لك الجليد آمناً وقوياً».

Twitter: @ketab_n

في أول الربيع حين بدأ الجليد يتكسر فوق البحيرات والأنهار، وصل الذئب الصغير إلى ضفة المياه في آخر المساء. كان متعباً وكان الالتفاف حول البحيرة طويلاً. فوقف وفكّر «جدي يبالغ في حذره من هذه البحيرة»، وجرّب الجليد بقدمه، ضاغطاً بوزنه عليه. فبدا قوياً له، فجازف بالعبور. لم يكن قد قطع نصف ميل حتى تكسّر الجليد ووقع في الماء وأمسكت به ثعابين الماء التي تعيش تحت البحيرة.

خمّن الشعر الأجعد ما حصل له حين أقبل الليل ثم النهار ولم يعد. حزن أياماً كثيرة في كوخه أولاً، ثم في غدير صغير يجري إلى البحيرة.

ثم قال له طائر كان يراقبه: «ماذا تفعل هنا؟».

أجاب: «لا شيء، لكن أتعرف من يعيش في البحيرة؟».

قال الطائر: «أجل، أمير الثعابين يعيش هناك، وأنا مكلف من قبله بمراقبة جسد حفيد الشعر الأجعد، الذي قتلوه قبل ثلاثة أقمار. ألست أنت الشعر الأجعد؟».

أجابه: «لا، لماذا تحسبه راغباً في المجيء إلى هنا؟ أخبرني المزيد عن تلك الثعابين».

Twitter: @ketab_n

أشار الطائر إلى ضفة رائعة من الرمل الأبيض حيث قال إن الثعابين تأتي بعد منتصف النهار لكي تنعم بالشمس. قال: «ستعلم متى تأتي، لأن صفحة الماء تكفّ عن الترقرق وتصير ناعمة وساكنة قبل أن ينهضوا».

قال «الشعر الأجعد»: «شكراً لك، أنا الساحر الشعر الأجعد. لا تخشاني. تعال وسأجزيك العطاء».

مضى الطائر إليه ووضع الشعر الأجعد ميدالية بيضاء حول عنقه، التي ما زال طائر الرّفراف يضعها إلى يومنا هذا. بينما يفعل هذا حاول اقتلاع رأس الطائر خشية من أن يذهب إلى الثعابين ويخبرهم أنه كان يراقبهم. غير أن الطائر فرّ منه ولم يخسر سوى بعض الريش.

ذهب الساحر إلى الشاطئ الأبيض وحوّل نفسه إلى جذع شجرة بلوط وراح ينتظر الثعابين. قبل أن يمضي وقت طويل صارت صفحة الماء ناعمة مثل بحيرة الزيت التي شكّلها هو ذات يوم. سرعان ما خرجت مئات الثعابين تزحف إلى الضفة. كان الأمير أبيض رائعاً، أما الثعابين الأخرى فكانت حمراء وصفراء.

تكلم الأمير إلى الآخرين قائلاً: «لم أر هذا الجذع الأسود هنا من قبل؛ ربما يكون هذا الساحر الشعر الأجعد».

Twitter: @ketab_n

ذهب أكبر الثعابين إلى الجذع والتف حوله وضغط عليه بقوة شديدة. كان الضغط الأشدّ على حلق الشعر الأجعد، وكان على وشك الصراخ حين أفلته الثعبان. وفعلت ثمانية ثعابين أخرى الشيء نفسه لكن كل واحد منها تركه قبل فوات الأوان. ثم التفت حول الأمير وأغفت بعد وقت طويل.

راح «الشعر الأجعد» يراقبها عن كثب، وحين رأى الأخير يتنفس بتثاقل نائماً، أخذ قوسه وسهامه ومضى بحذر حتى اقترب من الأمير وأطلق عليه سهماً وجرحه.

نهضت الثعابين الأخرى على الصراخ وهرعت إلى الماء، فتسببت بهياج الموج وثار فيضان كاد يغرق الشعر الأجعد. تسلق شجرة عالية وحين بلغت المياه وجهه بحث عن وسيلة ما للهرب. رأى طائر السّامك وقال له: «انزل يا أخي وائتني ببعض التراب لكي أستطيع أن أنشئ عالماً جديداً».

أطاعه الطائر لكنه صعد ميتاً. ثم طلب من فأر المسك أن يؤدي الخدمة له، ووعده إذا نجح بسلسلة من البحيرات الصغيرة المحاطة بنبات السمّار موطناً له في المستقبل. نزل الفأر وتنفس من منخريه، التي أبقته حياً. حاول ثانية وعاد غائباً عن الوعي لكنه كان يحمل بمخالبه بعض التراب.

Twitter: @ketab_n

سحر «الشعر الأجعد» التربة فامتدت إلى جزيرة، ثم إلى عالم جديد. بينما كان يمشي عليه، التقى امرأة عجوزاً، أم أمير الثعابين التي كانت تبحث عن الأعشاب لشفاء ابنها. كان معها حزمة من قضبان السدر على ظهرها جواباً عن أسئلته قالت له إنها تريدها شركاً لـ «الشعر الأجعد».

بعد أن عرف منها كل ما يريده قتلها «الشعر الأجعد» وسلخ جلدها ولفه حول نفسه، ووضع حزمة السدر على ظهره ومضى إلى كوخها.

هناك رأى جلد حفيده الحبيب معلقاً على الباب. وقد أغضبه هذا أيما غضب إلى درجة أنه بالكاد استطاع البقاء متنكراً. جلس في الخارج وبدأ يحبك شركاً من حزمة السدر، وهو ينوح كامرأة عجوز. ناداه أحدهم لكي يخفض صوته ويدخل ويعتني بالأمير.

وضع الشرك ومسح عينيه من الدموع ودخل مغنياً الأغنيات التي قالت له العجوز إن من شأنها شفاء ابنها.

لم يشكّ به أحد، وزعم أنه على وشك إخراج السهم الذي اكتشف أنه ليس مغروزاً عميقاً في جانب الأمير. بدلاً من

Twitter: @ketab_n

إخراجه دفعه فجأة إلى الداخل فقتل الأمير، لكنه بذل جهداً كبيراً فتمزق عنه جلد المرأة العجوز. همهمست الثعابين وهرعت سريعاً من المكان.

التجأ الشعر الأجعد إلى الغرير وبمساعدته رمى جداراً من التراب على فتحة كوخهم حتى لا يهاجمه أحد منها. كان لديها فتحة أخرى وراء الصخرة ومن خلالها كانت تحضر الطعام لكي لا تموت جوعاً بسبب الثعابين.

سرعان ما سئم الشعر الأجعد من العيش تحت الأرض فهمّ بالخروج، لكن الغرير وقف في طريقه ولم يتحرك بسرعة كبيرة فركل الحيوان المسكين وأرداه قتيلاً.

ثم هرع إلى كوخ الثعابين ووجد جسد الأمير الميت الذي تركته الثعابين في عجلتها للحاق به، من دون دفن، ووضع جلده حوله وذهب بجرأة لمواجهة قبيلة الثعابين. خافت الثعابين كثيراً منه فقفزت في البحيرة ولم تخرج منها قطّ منذ ذلك الوقت.

بعد سنوات كثيرة من الشر تاب الشعر الأجعد وسافر إلى نهاية الأرض حيث بنى لنفسه كوخاً، وحاول القيام بأعمال

Twitter: @ketab_n

الخير، لكي يتخلص من ذكرياته السيئة. لكنه كان مصدر رعب للبشر والحيوانات.

وبعد أن أبدى توبته الحقيقية على سوء أفعاله، أعطاه والده ريح الغرب جزءاً من مملكته. ذهب ليعيش وراء جبال روكي، وأخذ اسم «كا – بيب – أون – أوكا».

Twitter: @ketab_n

# زيارة السحابة البيضاء إلى الأميرة الشمس

في قديم الزمان، حين لم يكن ثمة مدن كبرى في العالم الغربي، كانت كل الأرض غابات وقفار، ذهب خمسة فتيان للصيد، أخذوا معهم صبياً اسمه «السحابة البيضاء»، كان في العاشرة فقط، لكنه كان سريعاً في الجري وثاقب النظر، فكان مفيداً لهم بشتى السبل.

انطلقوا قبل بزوغ الضوء، وقطعوا مسافة طويلة ولدى وصولهم إلى هضبة عالية، برزت الشمس فجأة. كان الهواء خالياً من الضباب، ولم يكن هناك سوى بضع أشجار عالية قريبة، فلمع شعاع الشمس مثلما لم يفعل من قبل، وتذمّر الفتيان: «يا لقربها!».

ثم قال أحدهم: «لنذهب إليها»، ووافقوا جميعاً. لم يرغبوا في أخذ «السحابة البيضاء» معهم، إلا أنه أصرّ على مرافقتهم. حين استمروا بالرفض هدّدهم بأن يخبر أهلهم والزعيم، الذي سيمنعهم بعد ذلك من القيام برحلة كهذه. أخيراً وافقوا وذهب كل واحد منهم إلى منزله للاستعداد. اصطادوا بعض الطيور وظبياً أحمر في طريق عودتهم لكي لا يرتاب بهم رفاقهم.

Twitter: @ketab_n

قبل أن يفترقوا اتفقوا على أن يحضروا أخفافاً وبزات جديدة من الجلد لكلّ واحد منهم في حال طال غيابهم ولم يتمكّنوا من تدبير الملابس.

عانى «السحابة البيضاء» المشقة الأكبر في الحصول على هذه الأشياء، لكن بعد التملّق دونما فائدة صرخ قائلاً «ألا ترون أنني لا أرتدي مثل رفاقي، كلهم يلبسون ثياباً جديدة؟»، وقد نجحت شكواه هذه ومنح ثياباً جديدة.

بينما مضت المجموعة قدماً في اليوم التالي همس بعضهم إلى بعض، محاذرين ألا يسمعهم أحد، «صيد عظيم» و«سنرى من يأتي بالطريدة الأكبر». وقد فعلوا هذا لكي يضلّلوا رفاقهم.

وحين وصلوا إلى البقعة حيث رأوا الشمس قريبة في اليوم السابق فوجئوا بأنها بدت بعيدة جداً مثلما تبدو لهم من قريتهم. سافروا يوماً بعد يوم، لكنهم لم يقتربوا منها قطّ. أخيراً أقاموا مخيماً وتشاوروا معاً حول الاتجاه الذي ينبغي أن يسلكوه. حسم «السحابة البيضاء» الأمر بالقول: «هناك مكان الضوء»، مشيراً إلى الشرق، «إذا ما مضينا قدماً فسنبلغه عما قريب».

مضوا شرقاً. عبروا القفار ودخلوا إلى غابة عميقة حيث كانت مظلمة في منتصف النهار. هناك جمع أمير الثعابين المجلجلة محاربيه حوله، لكن كبيرهم كان يضع تعويذة من جلد الأفعى، فتمكن هو ورفاقه من عبور الغابة دونما أذية.

Twitter: @ketab_n

مضوا يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة عبر غابات لا تنتهي. وحين أطلت نجمة الصبح بوجهها، وومض الأحمر الرائع في الغرب، وجمعت العاصفة الهوجاء حصادها، وهبت ريح الجنوب فضية من الهندباء البرية، مضوا قدماً، غير أنهم لم يقتربوا من هدفهم.

ذات مرة استراحوا طويلاً لكي يصنعوا أحذية للثلج والمزيد من السهام. بنوا كوخاً واصطادوا يومياً حتى بات لديهم مخزون وافر من اللحوم، بقدر ما يمكنهم حمله، وتابعوا طريقهم من جديد.

بعد عدة أقمار بلغوا نهراً يجري سريعاً باتجاه الشرق. مشوا بمحاذاته حتى تدفق بين هضاب عالية. تسلقوا إحدى هذه الهضاب ولمحوا خطاً أبيض بين الأشجار.

مضوا بسرعة ولم يستريحوا إلا قليلاً تلك الليلة، لأنهم فكروا أن الخط الأبيض هو بالتأكيد الممر الذي يفضي إلى بيت الشمس الرائع.

في صباح اليوم التالي وصلوا فجأة إلى بحيرة كبيرة. لم يكن من يابسة حولها إلا حيث يقفون. بعضهم كان عطشان، فانحنى لكي يشرب. وما إن تذوق الماء حتى بصقه: «مياه مالحة!».

حين بزغت الشمس بدت أنها تتجه إلى الأمواج الأبعد. نظروا بعجب، ثم حزنوا، لأنهم باتوا أبعد من الشمس مما كانوا بكثير.

Twitter: @ketab_n

بعد أن دخنوا معاً وهم يتشاورون في أمرهم، حزموا أمرهم على عدم العودة، بل أن يلتفوا حول البحيرة الكبرى. اتخذوا درب الشمال، لكنهم لم يمضوا إلا مسافة قصيرة حتى وصلوا إلى نهر عريض يجري بين الجبال. فباتوا ليلتهم على ضفته. بينما كانوا متحلّقين حول النار، فكر أحدهم في أن يسأل ما إذا حلم أحدهم بالماء.

بعد صمت طويل قال أكبرهم: «حلمت ليلة أمس أننا سلكنا الطريق الخطأ، وأنه كان علينا الذهاب جنوباً. لكن بعد المكان الذي خيمنا فيه بالأمس هناك نهر. هناك سنرى جزيرة لا تبعد كثيراً عن البحيرة. ستأتي إلينا بينما نمضي إليها لأنها ستحملنا إلى منزل الشمس».

سرّ الجميع بالمنام وعادوا واتخذوا درب الجنوب. بعد بضع ساعات من السفر بعد مخيمهم السابق وصلوا إلى نهر. في البداية لم يروا أي جزيرة، لكنهم تابعوا المسير حتى وصلوا إلى مرتفع من الأرض ولاحت لهم جزيرة في البعيد. بينما نظروا بدت تقترب منهم.

بعضهم خاف وأراد الرحيل، لكن شجاعة «السحابة البيضاء» أشعرتهم بالخجل، وانتظروا ما يمكن أن يحدث. رأوا ثلاث أشجار عارية على الجزيرة تشبه أشجار الصنوبر وقد تعرت

Twitter: @ketab_n

من أوراقها بفعل النار. بينما ينظرون رأوا قارباً له أجنحة ترفرف مثل أجنحة طائر السّامك حين ينخفض فوق ماء البحيرة. غادر القارب الجزيرة. وشقّ الماء بسرعة وحين لامس اليابسة خرج منه إلى الضفة رجل أبيض الوجه يعتمر قبعة وكلمهم، لكنهم لم يفهموا كلامه. أشار إليهم بركوب القارب الطائر، ففعلوا ذلك، وحملهم القارب عن الجزيرة.

كان ثمة جلبة رهيبة وقعقعة تشبه قعقعة الساحر وهو يخرج الروح الشريرة من بدن رجل مريض، ثم امتدت أجنحة بيضاء من جذوع الأشجار، وتركت نفسها تتحرك فوق الماء، مثلما يقفز الظبي في الغابة.

هبط الليل ورأوا نجوماً مألوفة فوقهم، فاضطجعوا لكي يناموا، غير خائفين من أيّ شيء.

حين بزغ النهار، لم يروا أي ضفة في أي مكان، بل فقط مياه البحيرة. كان ذوو الوجوه البيضاء لطفاء، وأعطوهم الشراب والطعام، وعلموهم الكلمات التي يخاطبون بها بعضهم بعضاً[1].

مرّ قمر وكاد القمر الثاني يغرب، حين قال زعيم الوجوه

(1) ينطوي ذكر «الرجل الأبيض» بهذه البراءة على نوع من التضليل، حيث أن البيض جاؤوا غزاة ومستعمرين ونشأت بينهم وبين الهنود الحمر حروب ضارية، ولم يكن البيض بمثل هذا اللطف الذي تحبّ المؤلفة أن تسبغه عليهم، محوّرة على الأرجح في بنية الحكاية الأصلية (م).

Twitter: @ketab_n

البيضاء إنهم قريباً سيعثرون على الشاطئ، وسيأخذهم إلى أميرهم، الذي سيوجّههم إلى نهاية رحلتهم.

كان الأمير يعيش في كوخ رائع من الحجر الأبيض وكانت الجدران من الفضة، وعلقت عليه دروع وسهام فضية. وكان عرشه من القرون البيضاء المنحوتة بأشكال عدة، ورداؤه من فرو القاقم، ولديه الكثير من الحجارة البرّاقة على رداء رأسه.

تكلم إلى «السحابة البيضاء» واستمع منه إلى قصة رحلتهم، وأحلامهم وخيبات أملهم، وكلّمهم برقة، محاولاً إقناعهم بالتخلّي عن مسعاهم، قائلاً: «أترون، هذه أراضي صيد، وفيها من الظبيان والأسماك ما يكفيكم، ولن يحاربكم أحد أو يتسبّب لكم بالمتاعب، فلماذا تمضون أبعد؟».

لكنهم أبوا البقاء. ثم اتضح أن الأمير ساحر إذ أخبرهم بالاتجاه الذي عليهم سلوكه، وما الذي سيحدث لهم. أخيراً سيصلون إلى كوخ الساحر العظيم، «الشعر الأجعد». سيسمعون صوته الرهيب قبل ثلاثة أيام من بلوغ كوخه، وسيبذل كل ما في وسعه لقتلهم.

حاول الأمير ثانية إقناعهم بالبقاء، وحين أصرّوا على الرفض أعطاهم هدايا من الطعام والثياب، وقادهم محاربوه إلى نهاية أرضهم.

Twitter: @ketab_n

عبروا الكثير من الغابات وسط أشجار لم يألفوها قبلاً. رأوا زهوراً تنبت في دربهم وكروماً تعترش الصخور وتمتد حول الأشجار، لكنهم ما كانوا يعرفون أياً منها. حتى الطيور كانت غريبة، وكانت تتكلم بأصوات لم يستطيعوا فهمها. غير أن كل هذا جعلهم يصدّقون أنهم يقتربون من أمير الشمس.

بعد أقمار عدة بليت الثياب التي أعطاهم إياها أمير الوجوه البيضاء، فارتدوا ثيابهم الجلدية ثانية. وما هي إلا لحظة حتى سمعوا جلبة عظيمة فعلموا أنهم اقتربوا من كوخ الساحر. كان الصوت رهيباً وبدا يأتي من مركز الأرض.

واصلوا المسير في ذلك اليوم. كانت الأرض صخرية صلبة وقد امتلأت أمكنة عدة بالمياه التي اضطروا إلى الخوض فيها. أشعلوا ناراً وتحلّقوا حولها لكي يجفّفوا ثيابهم ويستريحوا من عناء السفر.

استمرت الجلبة وتعالت كثيراً ففكوا مخيّمهم ومضوا قدماً إلى المكان الذي يعرفون أنه كوخ «الشعر الأجعد».

لم يكن كوخاً، بل مسكناً كبيراً فيه العديد من المواقد التي تومض مثل نيران مخيمهم. رغب اثنان منهم بالعودة ومحاولة الالتفاف على المسكن، إلا أن «السحابة البيضاء» قال: «فلنر الساحر أننا لسنا جبناء»، فمضوا إلى بابه.

Twitter: @ketab_n

هناك التقوا «الشعر الأجعد» نفسه، الذي بادرهم قائلاً: «مرحى يا أحفادي!».

حين دخلوا إلى مسكنه أعطى كلّ منهم بعض التبغ وجلسوا يدخنون وقال لهم إنه يعرف قصتهم، وقد رآهم حين غادروا قريتهم. تجشّم عناء فعل هذا لكي يصدّقوا ما سيقوله.

«لست أعرف إن كنتم جميعاً ستبلغون نهاية الرحلة، وإن كنتم قطعتم ثلاثة أرباع الطريق واقتربتم كثيراً من حافة الأرض، حين تصلون إلى ذلك المكان سترون هوّة تحتكم وسيصمّ آذانكم صخب السماء وهي تهبط على العالم. إنها تستمرّ بالصعود والهبوط. عليكم بالحذر، وحين ترفعكم سترون فتحة صغيرة. عليكم القفز عبرها من دون أن تخشوا شيئاً، وستجدون أنفسكم في سهل رائع.

ثم كشف لهم الساحر عن هويته، وقال لهم إنه لا حاجة إلى أن يخافوا منه إذا كانوا شجعاناً. فهو لا يُسمح له بمساعدة الضعفاء والجبناء.

حين دخلت أولى أشعة النهار إلى المسكن، نهض الشبان، ورفضوا أن يستريحوا أكثر، فدلّهم «الشعر الأجعد» على الطريق التي عليهم سلوكها إلى طرف العالم. قبل أن يغادروا أشار إلى

Twitter: @ketab_n

مسكن على شكل بيضة يقف على طرفه الأكبر وقال: «اطلبوا ما شئتم وذلك الذي يعيش هناك سيعطيكم إياه».

طلب الأولان أن يعيشا إلى الأبد وألا يعرفا العوز. وطلب الثالث والرابع أن يعيشا أكثر من الآخرين وأن يكون النصر حليفهما في الحرب دوماً. أما «السحابة البيضاء» فتكلم لصالح صحبته وصالحه. كانت الأمنية أن يعيشوا كالشجعان الآخرين وأن يكونوا ناجحين في الصيد لكي يؤمنوا قوت عائلاتهم وأقربائهم.

ابتسم الساحر لهم وقال صوت من المسكن: «ستتحقق أمنياتكم».

كانوا تواقين للرحيل خصوصاً أنهم أقاموا في مسكن «الشعر الأجعد» ليس يوماً واحداً بل عاماً كاملاً.

صاح بهم «الشعر الأجعد» وهم يستعدون للرحيل: «انتظروا... أنتما اللذان تمنيتما العيش إلى الأبد ستحصلان الآن على أمنيتكم». عندئذ حوّل أحدهما إلى شجرة سدر والثاني إلى صخرة رمادية.

وقال للآخرين: «الآن، يمكنكم الرحيل».

مضوا وهم يرتجفون خوفاً، وقالوا لبعضهم: «إننا محظوظون

Twitter: @ketab_n

لأن الأمير تركنا نذهب فقد قيل لنا إنه كان روحاً شريرة».

لم يمضوا بعيداً حتى سمعوا صوت جلبة منبعثة من السماء. ومع اقترابهم أكثر فأكثر صار الصوت يصمّ الآذان، وهبت رياح قوية حملتهم عن الأرض. حين بلغوا الحافة نفسها كان كل شيء مظلماً، لأن السماء قد أطبقت لكنها سرعان ما ارتفعت وعبرت الشمس فوق رؤوسهم بمسافة قصيرة.

مضى بعض الوقت قبل أن يستجمعوا شجاعتهم لكي يقفزوا في الفضاء. أخيراً قفز «السحابة البيضاء» وأحد رفاقه قفزة كبيرة وحطا في السهل الذي وصفه «الشعر الأجعد».

قال «السحابة» البيضاء للآخرَين: «أسرعا، السماء توشك على الهبوط».

مدّ الآخران أيديهما إلى الأمام لكن السماء أطبقت بقوة شديدة دفعتهما إلى الهوة. ووجدا نفسيهما وقد تحولا إلى ثعبانين عملاقين لا يمكن لأحد قتلهما، وهكذا تحقّقت أمنيتهما.

في الأثناء وجد «السحابة البيضاء» ورفيقه الأخير نفسيهما في أرض رائعة يضيئها القمر. بينما مضيا قدماً غادرهما كل التعب وشعرا أنه بات لديهما أجنحة. رأيا هضبة غير بعيدة وشرعا بارتقائها حتى يشرفا على الأرض.

Twitter: @ketab_n

حين بلغاها التقاهما شيخ. كان وجهه أبيض وشعره كذلك، أما عيناه فناعمتان سوداوان برّاقتان على الرغم من كبر سنه.

وقال بلطف لهما إنه الأمير القمر، وإنهما الآن قد أصبحا في منتصف الطريق إلى مسكن أخته الأميرة الشمس. ثم قادهما عبر هضبة شديدة الانحدار تؤدي من السفح الآخر إلى مسكن الشمس.

عرفهما الأمير القمر إلى أخته التي كان ترتدي رداء ذهبياً لمّاعاً كأنه منثور بالفضة. أنزلت عن الجدار غليوناً رائعاً وجراباً من التبغ، أعطتهما لهما.

سألتهما الكثير من الأسئلة عن بلادهما وقومهما، وسألتهما لماذا قاما بهذه الرحلة. أجاباها عن كل أسئلتها، وفي المقابل طلبا منها أن تحسن على شعبهما، فتشرق على حقول الذرة وتجعلها تنمو وأن تضيء لهم طريقهم عبر الغابة.

وعدتهما الأميرة بفعل هذا كله وكانت مسرورة جداً لكونهما طلبا الخدمات لغيرهما لا لنفسيهما.

قالت: «تعالا معي، وسأريكما الكثير مما لن تريانه في أي مكان آخر».

قبل الانطلاق أنزلت عن جدرانها سهاماً مطلية بالفضة

Twitter: @ketab_n

والذهب ووضعتها في جعبة ذهبية. ثم انطلقوا في رحلتهم نحو السماء.

كان دربهم عبر سهل فسيح مكسو بالكثير من الزهور الرائعة. وكانت مغطاة بالعشب الطويل ذات العطر الضوّاع كالزهور. مروا بأشجار سامقة ذات أغصان طويلة ممتدة وأوراق كثيفة. وأكثر الأشجار وفرة كانت على ضفاف نهر صاف كالكريستال، أو على ضفاف البحيرات الصغيرة التي بدت بممراتها الحجرية مثل زبديات من الماء موضوعة لاستعمال العمالقة. حلّقت أسراب من طيور الماء فوقهم، وطيور ذات ريش رائع عبرت الغابة كوابل من السهام. رأوا بعض المساكن الطويلة الجميلة فيها أقفاص مليئة بالطيور المغرّدة على الجدران، لكن القوم ما كانوا هناك.

حين قطعوا نصف السماء، وصلوا إلى مكان مفروش بالسجاد الوثير الجميل، اكتشف الشابان أنها السحب البيضاء. هناك جلسا، وشرعت الأميرة الشمس بتحضير العشاء.

هناك كان ثمة ثقب في السماء يمكنهم رؤية الأرض من خلاله. كان بوسعهم رؤية جميع التلال والسهول والأنهار والبحيرات والأشجار وبحيرة «سالت لايك» الكبيرة التي عبروها.

بينما ينظرون إلى قبيلة هندية ترقص، انبثق شهاب مشتعل، وعبر الهوة إلى الأرض وضرب أحب الراقصين إلى القبيلة، الفتى الصغير، ابن الزعيم العظيم.

هرع المحاربون إليه ورفعوه عالياً وهم يصرخون صرخات

Twitter: @ketab_n

عظيمة ويصيحون صيحات الحزن. ثم كلّمهم الساحر وأمرهم بأن يقدّموا كلباً أبيض للأميرة الشمس.

جُلب الحيوان، وحمله سيد الحفل فوق رأسه قائلاً «نرسل هذا لك، أيها الروح الكبرى» وفوراً رفع الحيوان المشوي عالياً وعبر السماء. ثم شفي الصبي وعاد إلى الرقص.

بعد أن تناول «السحابة البيضاء» ورفيقه الطعام مع الأميرة الشمس، مضوا حتى رأوا منحدراً طويلاً يشبه نهر الذهب يتدفق على رمال فضية.

قالت الأميرة الشمس: «ابقيا قريباً مني، ولا تخافا. فستبلغان ديارکما بأمان».

فتمسكا بحزامه، كل واحد من جهة، وشعرا أنهما يهبطان. ثم غطّا في النوم.

حين استيقظا وجدا نفسيهما في بلادهما، وكان جميع أصدقائهما وأقربائهما حولهما، فرحين بعودتهما. رويا لهم مغامراتهما، وعاشا سنوات طويلة بعزّ ووفرة، والأميرة الشمس تبتسم لهما في كل ما يفعلانه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

ISBN 978-9948-01-354-2
9 789948 013549